

كائن العزلة

رواية



كائن العزلة

المؤلف :

محمود الغيطاني

الطبعة الاولى :

يناير 2006

رقم الإيداع :

٢٠٠٦ / ١٢٠٥٥

I.S.B.N. : الترقيم الدولي :

84-931366-13-2

حقوق الطبع محفوظة

لوحه الغلاف :

الفنان أحمد الجنائني

تصميم وتنفيذ الغلاف :

كامل جرافيك

EDITORIAL HISPANO-EGIPCIA
SANABEL

الإشراف العام

د. طلعت شاهين

مكتب القاهرة :

ص.ب.: 22

الحي المتميز . مدينة 6 أكتوبر

مصر

Tel.:

(+20) 2 835 40 69

Mob.:

(+20) 12 410 20 08

e-mail:

sanabook@maktoob.com

sanabook@hotmail.com

كائن العزلة

رواية

محمود الغيطاني

إهداء

إلي...
محمد كمال البعلبي...
محمد سير سلطان...
رغم اصطخاب الحياة،
فالأصراقات لا بد أن تدوم

"إننا نعيش في عصر لا يحمل فيه سوي الثقلاء علي محمل الجد،
وإني لأحيا في رعب من ألا يساء فهمي"

"الوطنية هي فضيلة الشرير"

أوسكار وايلد

غسق التأودات

في الغسق الأخير من الليل، كانت دوامات غريبة من الوحدة بدأت تتتابني، كان الأمر أشبه بكائن ما منعزل في فراغه تلفه دوامات قوية لتطرحه بقسوة في أعماقها. تملكني الشعور الغريب فانقشعت رغبتني في السبات. أفتح عينيّ ببطء على اللاشيء. لم يكن في رأسي شيء، كأن مساحة هائلة من الفراغ قد تملكنتني فانقشع من رأسي كل ما كنت أعرفه منذ ميلادي، يا لها من حالة غريبة. أحاول جاهدا تذكر آخر ما فعلته، أو قرأته قبل تعمقي في النوم، فأعجز عن التذك. أتمسك بأهداب الذاكرة مستميتاً إلا أن حالة العجز المسيطرة عليّ كانت قد افقدتني الذاكرة تماماً. ينطلق إلى أذني صوت، يبدأ ضعيفاً واهناً ثم لا يلبث أن يشتد في عتمة الليل. أسمعه متناغماً متهادياً متصالحاً مع ذاته، وكأنه يتراقص بنعومة على موجات أثيرية تتهادى دون رؤيتها. أكون الأمر مجرد حلم أم هو هاتف من تلك التي تقترن غشية الآخرين في نهايات الليل؟ لا بد أنه كذلك، فأنا لم أعد أسمع شيئاً على الإطلاق. كل ما هنالك ذلك الصمت الثقيل ذو الطنين الذي يكاد أن يضغط على طبلي أذني فيمزقهما. ولكن ها هي تلك الصرخة الحادة التي انفلتت فجأة ليعود الصوت أكثر تناعماً. كان الصوت أنشوباً متغنجاً في انطلاقه الأبدية، وكأنه قديم قدم الأزل، أو تكون صاحبه إحدى

العاهرات التي اصطحبها أحد الجيران في الليل؟ أم تكون إحدى الزوجات؟ هاهو صوتها قد أصبح أكثر تحديداً واتساعاً في مساحتها. أسمعها تتأود، تتدلل، تعاتب صاحبها الذي لا بد أنه يضاجعها الآن بكل قوته. لا بد، فانطلاقاتها الشبقة صارت أكثر شطحاً من ذي قبل. أسترق السمع بشبق عجيب متخيلاً صاحبته في وضعها الذي لا بد أن تكون عليه الآن. لا بد أنها تمتلك نهدين نافرين يرفضان الاستقرار في الفضاء المحيط. صوت صرخاتها المنتشبة يدل على أنها تستطيع معايشة الكثير من الرجال في آن واحد. لا بد أنها شديدة الرغبة. أتخيلها فأشعر بنشوة حارقة تسري في جسدي.. كم أود أن أراها الآن، أتذكر صديقتي ذات الكفين المكتنزتين، أين هي الآن؟ كم أشتاق إليها في تلك اللحظة المستعرة. لها وجه كوجه الله في جماله. حينما تهلّ عليّ في كل هلة من هلاتها أري فيها وجه الله. أليست دليلاً على وجوده؟ أذكر أن أحد أقطاب الصوفية قد ذكر ذلك، لكنني أعجز عن تذكر اسمه الآن. يا لتلك الحالة المستعصية من الهذيان، أحاول الخروج من مستنقع النسيان الذي تسبح فيه ذاكرتي، أبدأ في استعادة ذاكرتي شيئاً فشيئاً، بينما الصوت الشبق، الهادئ، الحاد قد تحول إلى ما يشبه الخلفية الموسيقية للمشهد الذي أعيشه الآن. حينما وقعت عيناى علي الورق المبعثر في أرجاء الغرفة انقشعت ظلال التهويمات التي كانت تملكني فصار التذكر واضحاً ذا ألق أخاذ. أجل، لقد أخذتني سنة عميقة من نوم بعد ما استنفدت طاقتي تماماً في الكتابة عن

فيلم "أسرار البنات" للمخرج "مجدي أحمد علي". أذكر أيضاً أنني أطلقت على مقالي "صفعة علي وجه المجتمع". يا لهذا المجتمع المريض الضحل. أشعر أنه يكاد يخنقني حتى أموت غيضاً كلما تذكرت ما قدمه لنا ذلك الفيلم. أنهض من فراشي مستثاراً. أقول بسخرية:

- يا لتلك المتأودة.. ألا تدري أن صوتها يسري مع الليل فيصل إلى أمثالي من المصابين بالغلظة الجنسية؟!

اتجه صوب الثلاثة متناولاً إحدى زجاجات النبيذ. هي الوحيدة سلواي في مستنقعي الذي أعيش فيه. أجرع كأساً دفعه واحدة فأشعره لهيباً ممتعاً يهبط متسارعاً إلى معدتي من خلال مريئي الملتهب. أجلس علي مكثي مراجعاً ما كتبته قبل نومي. أجمع أوراقى المبعثرة ساخراً من نفسي:

- يا لتلك العادة القبيحة التي لا أستطيع التخلي عنها.

كنت قد تعودت دائماً بعثرة أوراقى أثناء الكتابة، ولولا أنني أرقم دائماً الصفحات التي أكتبها لأخذتني الحيرة كثيراً في تجميعها. بعدما اطمأننت إلى جودة ما كتبت انطلقت صرخة أخيرة حادة من تلك المرأة. أشعرها دافئة، وقحة، متعبدة. أنتظر سماعها مرة أخرى إلا أنها تلاشت تماماً. يبدو أنها كانت صرخة المتعة الأزلية التي تترك بعدها الروح جسدها لترحل في عوالمها الخاصة بها. أعرف أنها تذهب في تلك الرحلة إلى شطآن وبحار غاية في الإبهار ثم لا تلبث أن تملّ تجوالها فتعود

مرة أخرى حاسرة باكية إلى جسدها الثقيل. تمتد يدي إلى الهاتف بعد نفاذ صبري في عودة الصوت المتغنج. تتتالي أصابعي في الضغط علي الأرقام في متتالية عديدة عجيبة أحفظها عن ظهر قلب. بعد قرون من الرنين المنقطع ذي الصوت الغليظ يأتيني صوتها الواهن الناعس من الطرف الآخر:

- هل أصابتك نوبة جديدة من الجنون؟

تقولها ببطء ناعس بينما تأكل العديد من الحروف؛ فأعود إلى عوالمي الأولية الأولى. تلك العوالم الطاهرة النقية التي أفسدتها تجارب الحياة وقيود المجتمع المنقل بالعديد من الأوهام. أقول بعد فترة فكرت فيها كثيراً بماذا أرد عليها ولماذا هاتفتها:

- ماذا تفعلين؟

تطلق منها ضحكتها الناعسة المججلة التي أعشقها كثيراً. كانت صافية واضحة لها انسحاب بطيء أخاذ في نهايتها، فتشعرك بأنها تتغنج علي الرغم من عدم قصدتها كي توحى لك بذلك الإيحاء:

- أتهاتفني قبيل الفجر بدقائق لتسألني ماذا أفعل؟ يا لك من مجنون.

- شعرت برغبة شديدة في رؤيتك.

- الآن؟

- ولم لا؟

- أما زلت تكتب حتى هذا الوقت المتأخر؟
- لا . لقد أخذني النوم بعد كتابتي، إلا أنني استيقظت منذ نصف الساعة، وشعرت بالرغبة في رؤيتك.
- يبدو أنك شربت كثيراً.. أرجو أن تدخل حمامك الآن كي تفرغ ما في معدتك ثم تتجه لسريرك مباشرة.
كنت أعتاظ كثيراً حينما تخاطبني هكذا كالطفل. أنفجر فيها ناهرا:

- ألم أحذرك كثيراً من مخاطبتي بك اللهجة؟
تقول مسرعة محاولة امتصاص غضبي:
- لا تغضب حبيبي.. فقط أقصد مداعبتك.
تصمت برهة لتستترك:
- قل لي.. ماذا هناك؟
- لا شيء علي الإطلاق.. شعرت بالرغبة فيك، وأن تكوني بجانبني.. أما الآن فالرغبة الوحيدة المسيطرة علي هي إغلاقك لسماعة هاتفك حتى لا أغلق في وجهك.
تقول بطريقة توشي لي أنها تبتسم:
- لا عليك.. سوف آتيك.. ولكن قل لي ماذا هناك؟
أقول وقد هدأتني بسمتها التي رأيته بخيالي:
- استيقظت على صوت أنثوي يكاد أن ينفجر من المتعة فشعرت بالحاجة إليك.
تقول بخبث:

- وهل أنت في حاجة إليّ أم إلي المتعة؟

- ماذا تقصدين؟

- إذا كنت في حاجة إلى كائنات ذات كيان وكائن مستقل فأنا
رهن يمينك، أما إذا كنت في حاجة إلى إطفاء غلمتك فعندي
لك علاج سريع المفعول.

- أي علاج هذا؟

- اتجه حبيبي إلى أي ركن من أركان منزلك ومارس عادتكَ
السرية.. إنه أفضل علاج لك في تلك الحالة.

أقول مبتسماً:

- بل أنا في حاجة إليك؛ فهناك فراغ كبير يحيط بي حتى أنه
يعزلني عن نفسي.

منزعجة:

- لتأخذ حماماً بارداً حبيبي وسأكون عندك قبل أن تنتهي منه.

لينا

كنت قد تعرفت على لينا منذ وقت ليس بالطويل، كنا في شهر ديسمبر بلذعته القارصة، حيث تتقلب الطبيعة على ذاتها مفرغة كل ما في جوفها من غضب على الإنسان. كانت السماء قد أظلمت قبيل المغيب حتى أنك لتظن الوقت قد انتصف ليله، وكانت حركة السحب السريعة التي حبلت بها السماء تدل على أنها ستكون إحدى تلك الليالي الممطرة التي تظل فيها السماء ترعد غاضبة طوال الليل، لتسكب كل ما في جوفها من مياه كي تترك العالم ذات صباح وقد غسلته تماماً من أدرانهِ القذرة التي نصنعها بالطبيعة الصافية. كثيراً ما كان الاكتئاب يملكني في مثل هذه الأوقات، على الرغم من حبي الشديد للأمطار حتى أنني قد أسرع كثيراً للخروج إلى عرض الشارع كي أغتسل بمياه الأمطار تماماً كما يفعل الأطفال؛ إلا أن تلك الطبيعة القاسية المظلمة العابسة كانت تخيفني إلى حد كبير، كثيراً ما تنقبض نفسي المائلة دائماً للسوداوية على ذاتها كأنها إحدى الكائنات الهلامية الضعيفة المنكمشة داخل محارثها خوفاً من خاطر ما. حينما أظلمت السماء بشكل فجائي في ذلك اليوم شعرت بضيق شديد يكاد أن يخنقني، حاولت تبديد وحدتي التي خلقت بها وكأنها تلازمي منذ الأزل، هل هي قديمة قدم الله أم أنها تلازم بعض هؤلاء الذين لا يدرون معنى لحياتهم؟ حاولت

التغلب على تلك الحالة المميّنة بطريقتي الخاصة جداً، والتي
أمارس فيها طقوسي الحميمة على جهاز الكمبيوتر الخاص بي،
حيث أضع السماعات على أذني مديراً مجموعة مختارة من
الأغنيات لأغرق تماماً مع الصخب العالي الصادر عن تلك الآلة
الصماء التي تتحول إلى صديق مخلص في تلك الأوقات. حينما
بدأت أتوحد مع تلك الآلة العجيبة التي تنقلني إلى عوالم أخرى
لا أجد لها مدداً، حتى لكأنني أحد أقطاب الصوفية قد توحد مع
الله في عليائه، فأخذت تحولني من حالة إلى أخرى حتى يتلاشى
الجسد تماماً، وتخرج الروح من ثقلها المادي في جولة لا نهاية
لها متلاشية مع الأثير الذي يطرحها بقسوة في نهاية تجوالها كي
تعود مرة أخرى إلى ثقلها المادي البغيض، انتبهت فجأة على
صوت الريح العاوية كعواء حيوان مجروح، كان ذلك الصوت
يخيفني كثيراً فأتخيله صوت أحد الكائنات بلفظ أنفاسه الأخيرة
في شيء غير قليل من الألم مما يجعلني غير قادر على
الاستقرار المطمئن، فأضغط أذني بكفتي يديّ كاتماً ذلك الصوت
حتى تكاد طبلتيّ أذني أن تنفجراً من فرط الضغط عليهما.
أحاول الهروب من تلك الحالة الكئيبة من الفوبيا، التي لا أدري
لها سبباً. علما البدايات الأولى في التنشئة، كثيراً ما تطمس
بدايات الأشياء من ذاكرتي فأجهلها تماماً كي تصبح النتائج هي
اليقين الوحيد في حياتي. أجري اتصالاً مع البعلي متفقاً معه أن
يقابلني في وسط البلد. يا لهذا المكان الذي أعشقه متوحداً معه
إلى حد التلاشي. كان قد استقر في ذاتي منذ القدم حتى لكان

الأمر قد صار عقيدة خاصة بي أنه المكان الوحيد الذي تستطيع أن تتلاشى فيه وسط الناس بضجيجهم المؤلم. المكان يعج دائماً بمريديه لا يكاد يخلو لحظة واحدة، هناك تستطيع أن تَري كرنفلاً حياً من الحيوانات الإنسانية المتناقضة، المتداخلة، المتفقة إلى درجة الوجد الصوفي. تاريخية الموقع تكسبه بهاءً خاصاً به ذا قدسية حتى وكأنه ليس من تلك المدينة الغارقة في سباتها الليلي؛ فهنا يوجد قانون خاص مختلف تماماً عن قوانين أطراف المدينة، على الرغم من تاريخية المباني بمعمارها العتيق إلا أن يد التغيير القبيحة قد امتدت إليها لتعمل على تشويه ذلك الفن الجميل، كنت ألمح ذلك دائماً كلما تجولت في ذلك المكان ذي القدسية الخاصة، فتجول عيناى بلا إرادة مني، وكأنني لا أملك القدرة على توجيهها مقارنة بين الواجهات السفلية للمباني بطابعها الحديث، وبين الواجهات العلوية ذات المذاق التاريخي الخاص. كانت مبنية جميعها على الطراز الفرنسي الإيطالي القديم، وعلى الرغم من ذلك الجمال الحاد المنذر حرص الباعة، وأصحاب محلات الأحذية والملابس على تشويه الواجهات السفلية لمحلاتهم ذات الطابع الكوزموبوليتاني الحديث، لكل منهم ذوقه الخاص في التشويه مما أكسب المكان تنافراً وحشياً عجيباً لمن يراه للوهلة الأولى إلا أن العين بمضي الوقت سوف تتعرف على المكان بكل متناقضاته، فيصير الأمر طبيعياً تماماً، وكأنه لا يمكن أن يكون إلا هكذا. ساهم الباعة الجائلون على الأرصفة العريضة في تشويه المكان بنداءاتهم

المتنافرة، وأجهزة الكاسيت ذات الضجيج التي تبث خليطاً
ممجوفاً من الأغاني الهابطة، التي تدل على تدني وضحة
المستوي الفكري الذي صرنا نعيش فيه. لست أدري كيف
يستطيع هؤلاء البشر تحمل ذلك الصوت الضوضائي المرتفع
من الكاسيتات المختلفة. يلكنني أحدهم بمرفقه بقوة لترتفع يدي
على صدري الذي ضاق نتيجة ارتطامه العنيف بذلك الرجل.
أنظر تجاهه إلا إنه غاب وسط الضجيج العجيب دون أن يأبه
لذلك الذي ارتطم به. أنتبه على خليط الأغاني المختلفة ذات
النشاز العجيب مما جعلني أفكر فيما يسمونه، هل من الممكن
أن تكون مثل هذه الأصوات الشاذة ذات النشاز غير المحتمل
معبرة عن فن ما؟ أم أن العيب في أذني التي فقدت موسيقيتها
منذ زمن بعيد؟ بالتأكيد هم الجهلاء، وإلا ما استمعوا إلى ذلك
الذي يصرخ بصوته المشروخ الذي يكاد أن يصم الأذان قائلاً
"أنا باكره إسرائيل". يا لهؤلاء الحمقى... كيف يعتبرون ذلك فناً،
ثم يتجراؤون فيما بعد ليقولوا بكل فخر وعلى الملأ هكذا عياناً
بياناً نحن أصحاب حضارة عمرها سبعة آلاف عام؟ أية حضارة
بائسة تلك التي يلوكون بها ألسنتهم ليل نهار؟ لا بد أنها حضارة
المجاذيب والمتعهرين من هؤلاء الذين يشكلون الطبقة الدنيا في
سلم التطور الإنساني لذلك الكوكب البائس. اشتداد الريح التي
تكاد أن تخلعني من على الأرض جعلني أفيق من تأملاتي الناقدة
دوماً لكل ما حولي؛ فانكمشت على ذاتي من فرط البرودة حينما
مررت بجوار الأمريكيين قادمين من شارع 26 يوليو متجهاً

صوب شارع طلعت حرب، أتوقف قليلاً لمطالعة الكتب المعروضة مع ذلك البائع المرابض دائماً بجوار الأمريكيين. وقفتي الطويلة المتألمة جعلته يستريب بي فوقف بجانب متحفراً بعد أن كان منكشاً في معطفه الثقيل. أيلظني من سارقي الكتب ذلك الأبله؟ أتركه ضاحكا ساخراً من هؤلاء المتتقين المتأدبين الذين حسبوا علينا هباء. كان الكثير منهم لا يعدو مجرد صعلوك أو لص لم يقرأ في حياته أكثر من كتاب أو اثنين، هذا إذا كان قد قرأ بالفعل، ثم يأتي إلى أماكن تجمعاتنا الثقافية متلصصاً، في البداية كي تراه في نهاية الأمر جالساً معك هكذا دون أن تشعر كيف ومتى تم ذلك؟ فتلتصق به صفة المثقف على الرغم من جهله الشديد. هؤلاء هم الذين ألصقوا بنا تهمة سرقة الكتب، ولعل ذلك الشعور الذي كثيراً ما تراه في جميع مقاهي وسط البلد، التي يتجمع عليها أمثالنا هو السبب الرئيسي في تلك السبة التي التصقت بنا. كنت كثيراً ما أراه على زهرة البستان بلهجته الريفية القادمة من أعماق الريف، يحدث أحداً أو يطلق هراء ما يسميه بقصيدة جديدة له، فأندesh من هذا الذي يظن نفسه شاعراً على الرغم من جهله المطبق بكل مقتضيات الثقافة. حتى العروض العربي والموسيقي الداخلية لا يعلم عنهما شيئاً. أذكر ذات مرة حينما تحدثت معي وحدثته عن رواية "الصخب والعنف" لوليم فوكنر، وأسلوب البناء الروائي ذي الطابع الهندسي فيها. وقتها رأيته قد التزم الصمت، وعبس وجهه الذي اسود إلى أقصى درجات السواد، حتى لكأنه قد

صار متفحماً، أو أن والداه قد ماتا لتوهما. رغبة سادية عميقة تملكنتي وقتها فرغبت في إحراجه إلى أقصى درجات الإحراج، لم أدر لم أصررت على فعل ذلك، إلا أنني أدركت فيما بعد حينما جلست جلسة هادئة مع ذاتي أنه كان يستحق ذلك حتى يكف عن تبجحه كثيراً بانتسابه إلى المثقفين، هؤلاء المظلومين دوماً بسبب أمثاله من حثالة المجتمع البغيض. هذا المجتمع الذي يحمل جميع أفراداه تقريباً فوق أكتافهم كرات غليظة من العظم السميك المفرغ. حينما عددت له الكثير من النظريات الأدبية، مثل الكتابة عبر النوعية، وما بعد الحداثة، والتفكيكية، رأيت عينيه قد أظلمتا تماماً، وبدأ ينكمش في ذاته حتى أنه ذكرني بنفسه حينما تتابني تلك الحالة من الانكماش، وكأنني كائن هلامي في محارته حينما تغضب الطبيعة. هاجس ما انتابني كي أرحمه، إلا أن رغبتى السادية المستميتة داخلي كانت تدفعني إلى إيذائه أكثر، ذكرت له "موبي ديك" لهيرمان ميلفيل، تلك الملحمة التي قلما يتحفنا بها التاريخ. كلامي المليء بالعديد من الاصطلاحات الصعبة على الفهم جعله يحمل ديوانه الذي أصدرته له إحدى دور النشر الحكومية البلهاء التابعة لوزارة الثقافة، والتي كانت تتخبط كثيراً في سياسات النشر بها متخذة من الشللية والرشاوى والمعارف وسيلة للانطلاق وطباعة الكتب لذوي العاهات الثقافية. كنت أتأمله من على منضدتي التي تركها للتو كي يغادر المكان أسفاً على لقائي، بينما يده التي تحمل عصاه تساعد في الركض بعيداً. لمت نفسي قليلاً من الوقت

على ما فعلته معه، إلا أن قناعاتي الخاصة بأن هؤلاء الأغبياء
ذوي الرؤس الفارغة لا يستحقون سوي ذلك حتى لا يشوهون
ثقافة المجتمع المشوه جعلتني أَرْضَى عما فعلته. اشتداد الريح
العنيف جعل العديد من الباعة الجائلين يجمعون أشياءهم بينما
رؤوسهم تدور فيها العديد من الأشياء التي سيفعلونها حينما
يذهبون إلى زوجاتهم. كان أحدهم يبتسم لنفسه فتأكدت مخمناً أنه
يمني نفسه بعشاء ساخن تفوح منه رائحة الطعام المنزلي الدافئ،
ثم لا يلبث أن يضاجع زوجته في برد ديسمبر القارص هذا كي
يتحولاً معاً إلى شعلتين متوهجتين من الجمر تكادان أن تحرقا
فراشهما من فرط الرغبة اللاهفة. بالتأكيد سيضاجعها حتى
الصباح، وبالتأكيد ستكون سعيدة بذلك الحب الليلي الأخاذ الذي
سيأخذ روحها بعيداً عن جسدها في رحلة أبدية تتحرر فيها
بعض الشيء من ثقل الجسد. يا لتلك الرحلة الجميلة المليئة
بعوالم غير مرئية. أعرف أيضاً أن روحيهما حينما ستعودان
إليهما سوف يتدثران ببعضهما البعض تحت أحد الأغطية الثقيلة
ليغطان في نوم عميق هانئ، بعد أن أشبع كل منهما نهمه نحو
الآخر. أفيق على زخات رقيقة من المطر بدأت تتسارع في
التساقط. كنت قد وصلت إلى منتصف الميدان. أمامي تماماً
جروبي بمعمارهِ القديم المحافظ على تاريخه، بينما مكتبة الحاج
مدبولي في ظهري تماماً. أمر بجوار حزب التجمع لأتخذ
الرصيف المقابل. أتأمل نوافذه المغلقة في ذلك الوقت المتأخر
بزجاجها العسلي اللون. تقع عيناى على الشارع القصير الكائن

فيه مدخل الحزب أمام الأتيليه مباشرة بشيء من الانحراف. شارع كريم الدولة. أردد الاسم بصوت خافت كما يحلو لي دائماً كلما وطأته قدماي. أنتبه على نظرات أحدهم يتأملني مستريباً. يبدو أنه يظنني أحد هؤلاء المعتوهين يتحدث مع ذاته. أذكر هشام بيومي بوجهه الأبيض المكتنز دوماً المائل إلى الاحمرار وكأنه سينفجر للتو. كانت له طريقة سمجة مقززة في استدراج وتكوين كوارر شبابية تؤمن باتجاهات الحزب وأيدلوجيته الخاصة. على الرغم من سماجة أسلوبه المفضوح بالنسبة لي إلا أنني كنت أتقبله عن طيب خاطر، ربما لحبي الشديد واعترازي بصداقته. كنت ما زلت في سنوات التكوين الأولى، أو ربما قد غادرتها ببضع مراحل، فكنت أقبل منه دائماً الكتب التي يهديها لي بغرض غسيل مخي وملئه بالأفكار الاشتراكية والشيوعية، التي أحبها وأؤمن بها إلى حد كبير، فكنت أستزيده كي يعطيني المزيد. أدرك جيداً أن اصطناع السذاجة هي أفضل الطرق للوصول إلى أعماق من أمامي. تتمثل أمام عيني العديد من الندوات واللقاءات الثقافية التي حضرتها في ساحة الحزب الذي كان في يوم من الأيام مكاناً دائماً لإقامتي. أذكر سيد حجاب وطريقته الخاصة في إلقاء أشعاره، مجدي حسين يوم احتدت بيني وبينه المناقشة داخل قاعة دويدار بالحزب عن معنى الثقافة ومدي تحمل الكاتب للكلمة التي يقولها. أذكر أحد كوارر الحزب الشيوعي المصري، الذي كان قد خرج لتوّه من المعتقل، وقد أعجب بي أثناء نقاشي مع مجدي حسين، الذي أبدى احترامه لي

في ذات الوقت. حاول كل منهما وقتها جذبي إلى صفه وقناعاته الخاصة، حتى لقد طلب مني مجدي اللقاء به في مقر جريدته، لأنه يسره أن يجلس متحاوراً معي. كانت لي قناعاتي الخاصة وثقافتني التي أتكيف معها فلم أهتم بهذا ولا ذاك. يا لتلك الأيام التي ضاعت ولعلها لن تعود مرة أخرى. كنت أدري جيداً أن السياسة مجرد لعبة قدرة فكنت أحرص على التماس مع دائرتها دون الوقوع داخل فخها الضحل. أسرع الخطو تجاه الممر الكائن في داخله مقهى "أفتر ايت" حيث انققت مع البعلي على اللقاء منذ ما يقرب من الساعة. وقتها كنت أحاول الهروب جاهدًا من خلوتي القاسية التي أشعرتني بالخوف. لم أدر وقتها بمن أتصل أو أقابل؛ كنت اعتدت منذ زمن بعيد على الوحدة. واستكفيت بعلاقتي مع ذاتي مستبدلاً بها علائق الآخرين. أذكر أن أحد الصوفية ذكر ما يشبه مثل هذا القول. وقتها لم يتبادر إلى ذهني سواه ليدفع عني وحشتي. ومن غيره يستطيع فعل ذلك، وهو الوحيد الذي ما زلت محافظاً على صداقته حتى الآن؟ كان من أكثر من عرفتهم ثقافة وإخلاصاً. لم تكن له مآرب أخرى على الإطلاق سوى صداقته لي. المكان شديد الازدحام مما يزيد الممر ضيقاً. لست أدري لم صمم على اللقاء هنا. عرضت عليه زهرة البستان إلا إنه أبى ذلك. له بعض مبرراته المقبولة إلى حد ما. لكن المكان هنا يضح بزائريه من الشباب. معظم الجالسين من الفتيات والشباب في مقتبل العمر. جميعهم بلا استثناء ينهمكون في أحاديث جانبية تشعلها الثقافة والرغبة

المتأججة داخلهم منذ الأزل لتفريغ شحنات الجنس الحارقة بينما أفواههم تتبادل الكلمات بمباسم النارجيلة. أبحث عنه بين الوجوه المصطخبة فلا أراه. أسمع صوته يأتيني هادئاً بعمقه الرزين المألوف من خلال ذلك الدهليز الجانبي الذي يعد امتداداً للمقهى الصغير المزدهم. كان الممر على يميني تماماً، أراه يجلس على طاولته مشاركاً إحدى الفتيات في جلسته. شاب ما كان يجلس بالقرب منهما، إلا إن جلسته كانت توحى لمن يراه أنه يشاركهم الجلسة ولا يشاركهم في ذات الوقت. التبس عليّ الأمر حينما اقتربت منهم فلم أدر هل أصافحه لأنه شريكهم في الطاولة أم لا؟ كنت أتمنى قيام البعلي بذلك الواجب نيابة عني. ما كدت أن أقول له:

- أهلاً يا بعلي.

إلا وقام متطوعاً بتعريفنا على بعض. عرفت أنه أحد الأصدقاء وذكر اسمه لي إلا إن ذاكرتي لم تعد تسعفني الآن لتذكره. كانت الفتاة الجالسة معهم بنتاً خلّاسية جميلة إلى حد بعيد. لفتت نظري حينما وقعت عليها عيناها إلا أنني صافحتها ثم جلست مرحباً بهم. يداها المكتنزتان أول ما لفت نظري إليها. تمتلك يدين ذات ملمس حريري، حتى لكأنك تخشى من جرحهما حينما تصافحها فتضطر إلى سحب يدك بسرعة، وكأنما أصابتك صاعقة حتى لا تخدش ذلك الجمال الأخاذ. أناملها المسحوبة المدببة على أظافر طويلة كمخالب القط تكاد أن تأثر فتأخذك بعيداً إلى عوالم نورانية لا تدري لها مدداً. كأن طلاء أظافرهما

ذا اللون الأحمر القاني يذكرك بأول نقطة دم أريقت على وجه الأرض، حينما قتل قابيل أخاه هابيل من أجل امرأة. هل من الممكن أن أقتل من أجل هذه الخلاسية ذات الكفين المكتنزتين؟ تعلقت عيناى بكفيها فلم أستطع أن أبعدهما. ربما تكون قد لاحظت ذلك. فهمت هذا من حركة يدها العصبية على علبه سجائرها المارلبورو حينما أخرجت إحدى السجائر ودعتني لمشاركتها على سبيل التحية. تناولت السجارة منها وأنا أود تقبيل تلك اليد الممتدة إليّ. عوضت رغبتى في التقبيل بتقبيل السجارة بديلا عن تلك الكف الرائعة. سمعت البعلي يقول:

- لينا.. مترجمة، ولها العديد من القصص الجميلة.

أومأت لها برأسي فردت تحيتي ببسمة اتسعت على أثرها شفتاها الممثلتان اللتان تدعوان للتقبيل في وضح النهار. يا لهاتين الشفتين، بهما دعوة دائمة للرغبة الملتهبة، يزيد من ذلك الإحساس تلك الانفراجة البسيطة التي بينهما. عيناها لهما سواد حالك شديد الحلقة حتى أنك تظن نفسك قد غرقت في ليل شديد الظلمة، يحيط هذا السواد بياض ناصع لا شبهة فيه. كان التناقض الشديد بين الأبيض والأسود مع اتساع حدقتيها يعطيها نوعاً من الجمال النادر. جمالها البارع مع حركة شففتيها الشهوانيتين اللتين تدلان على رغبة عميقة مستعرة فيها منذ الأزل جعلاني أضج بجمالها الذي ضاق به المكان. حاولت الانصراف عن تأملها بحديثي مع البعلي. ذكر لي أنه قرأ مقالي عن فيلم "أرض الخوف":

- مقالك الأخير عن أرض الخوف حيرني معه كثيراً.

- كيف ذلك؟

- حديثك عن الميتافيزيقا وقصة الخلق وقبول آدم الأمانة ثم هبوطه على الأرض، كل تلك الإسقاطات الدينية الخطيرة كيف استطعت استخراجها من الفيلم؟ لقد رأيته مرتين تقريباً ولم ألاحظ ذلك إلا من خلال مقالك.

كان يتحدث وكأنه حفظ ما كتبته. ترسم على وجهي بسمة هادئة متأملة بينما عينيّ تجولان بصبر في رحلة أبدية لا تنتهي مع شعر لينا الأسود. كان لسواد شعرها اللامع كالألّق، وانسداله المتماوج كلفائف الحرير على كتفها سحر غامض لست أدري مصدره. أتأمل وجهها البرونزي المنصت في اهتمام لمتابعة حديث البعلي. يا لجمالها في إنصاتها الشغوف للمعرفة بينما أناملها الرفيعة المدببة ذات الأظافر الدموية الطويلة تتحي خصلة انسدلت على عينيها. تمنيت في قرارة نفسي أن يعود بنا الزمن للوراء كي تعود خصلتها المنسدلة مرة أخرى على عينيها. كان لها جاذبية أسرة هكذا. دخان سيجارتها النائمة بوداعة مستكينة بين أصابعها أدمع عينيها فأغمضتهما على اللاشئ. كدت أنهض مقبلاً تلك العينين ذاتا الحدقتين المتسعتين خائفاً على جمالهما أن يفسد. أقول بعد فترة صمت خلتها قروناً انقضت:

- أتدري.. على الرغم من احترامي وتقديري لتقافتك العامة إلا أنك أحزنتني لضعف ثقافتك السينمائية.

أنظر لصاحبنا الرابع الذي التزم الصمت طويلاً، وقد بدأ يتململ في جلسته لأقول:

- إن داود من أكثر مخرجينا اليوم نكاء، ولذلك تجد العديد من أفلامه عبارة عن تحف سينمائية لا نظير لها.
- لكنه هكذا يتعالى علينا كجمهور سينما بثقافته، أو على الأقل هو يخدعنا ساخراً منا.
- أضحك قائلاً:

- أعتقد أن جمهور السينما الحالي يستحق تلك السخرية، لأنه لا يأكل سوي البرسيم على حد قول رأفت الميهي، ولكن الأمر ليس هكذا؛ تصورك خادع إلى حد ما.. داود حينما قدم فيلمه قدمه على ثلاثة مستويات فنية كي يرضي جميع فئات الجمهور.. هناك من سيرى الفيلم على أنه من أفلام الأكشن والاتجار بالمخدرات، وهناك من سيراه من منظوره الثاني، وهو المستوى السياسي المتخبط والمتأزم الذي يشبه الثور الأعمى في تخبطه، ليس في مصر فقط، ولكن في جميع بلداننا العربية البائسة ذات البلاهة السياسية، وهناك من سيراه من منظوره الأعمق، وهو الجانب الميتافيزيقي الذي قصده داود عبد السيد مباشرة دون التوقف أمام المستويين الآخرين.

- لا أختلف معك أن الفيلم له بعد سينمائي عميق، لكني ما زلت عند رأيي أنه يتعالى علينا.

لم أنتظر من البعلي كمتقف أن يصر على رأيه هكذا. فأنا لا أشك في ذكائه، ولكن إصراره بهذا الشكل الغبي جعلني أحتد عليه إلى حد ما:

- وماذا تريد منه أن يقدم؟ أفلام مثل اللمبي وما شابهها لمجتمع جاهل متهتك لا يسعه التفكير إلا في جهله المطبق وطعامه وتخاريفه الدينية، ثم إرضاء شهواته بالتفكير في عضوه الذكري؟

أنتبه لما قلته فأفكر فيه. نوع ما من الصفاقة أن أقول مثل هذه الألفاظ أمام لينا، خاصة وأنه اللقاء الأول بيننا، إلا أن ضحكاتها التي انطلقت مجلجلة في الفضاء الرحب ذي الجو الشتائي الثقيل أخرجتني من حرجي. كانت ضحكاتها ذات صفاء عجيب يشعرك بربيعة الجو، وكأن الزهور تتفتح على اثر سماعها لمثل هذه الضحكة كي تمتص رحيقها العذب. أسمعها تنهي ضحكاتها الرائقة بذلك الانسحاب البطيء الأخاذ في نهايتها، فتشعرك بأنها ذات غنج موسيقي يأخذك إلى عوالم نورانية ملتهبة على الرغم من عدم قصدها كي تعطيك ذلك الإيحاء. أعطتني ضحكاتها نوعاً من الاطمئنان الداخلي فاسترسلت في حديثي الجاد:

- الأمر هنا لا يمكن إخضاعه لمعنى التعالي، فهو يحاول أن يرتفع بمستوى الجمهور إلى مستوى فكري راق، إلا أن تلك النظرة التي نظرتها إليه أنت وأمثالك كانت معطى طبيعياً لما يحدث حولنا في واقعنا المتهرئ، فكيف يستطيع ذلك

الجمهور البائس أن يرتقي إلى مثل هذا السمو الفكري بعد أن
تم حصاره حصاراً تاماً في بوتقة الأفلام التافهة المفرغة
من محتواها؟
أقول بعد برهة:

- آسف لاحتدادي عليك.. في كلامك شيء من الصحة الناتجة
عن جهل الجمهور.

يبدو أن حديثنا الجاد جداً لم يرق ذلك الجالس معنا. انتبهت
لذلك حينما بدأ يتململ مرة أخرى ناظراً في ساعته أكثر من
مرة، ثم تشاغله بالموبايل الخاص به حتى نهوضه راحلاً متعللاً
بشيء ما. أراه ينظر إلى لينا منتظراً رحيلها معه. ينقبض قلبي
بقوة حتى كادت أنفاسي أن تنقطع حينما تخيلت أنها قد ترحل
معه، إلا إنها اعتذرت له متعللة برغبتها في البقاء. خطواته
العصبية الواضحة في مشيته جعلتني أتساءل. هل هو علي
علاقة ما شبة سرية أو علنية مع لينا؟ هل تكون صديقته
الحميمة؟ ولكن مالي وهذا الأمر؟ أهى حبيبتي؟ لم أستطع تحمل
فكرة أن يكون بينهما شيء؛ فتلك الملاك النورانية ذات الكفين
المكتنزتين ذات أثرية خاصة لا يمكن لها أن تهبط لذلك البعد
الإنساني المقل بأعباء المادة.

- ولكن هل رأيت فيلم اللمبي؟

كان السؤال موجهاً إليّ مباشرة من لينا. يا الله.. هل هذا
ممکن؟ أتحدثني بذلك الصوت الملائكي موجهة كلامها إليّ
مباشرة؟ لم تكن قد حادثتني منذ جلست معي منذ أول الليل.

على الرغم من اشتداد البرد حتى أن البعلي انكمش في ملابسه، فبدأ يشبه القنفذ في جلسته، إلا أنني شعرت بنار مستعرة داخل جسدي الخاوي جعلت قطرات متألقة من العرق تسيل في الحد الفاصل على امتداد ظهري. أقول وقد بدأت أشعر بصفاء ذهني نادراً ما كان يواتيني في تلك الليالي المثقلة بالأمطار:

- للأسف لم يسعدني الحظ برؤيته، لقد شعرت برغبة قاتلة تدفعني للإعراض عن رؤيته.
نقول بذكاء:

- وتظن أن لك الحق في الحديث عنه دون رؤيته؟

كنت أعرف جيداً أنها تقودني إلى فخ، فكيف أستطيع الحكم على شيء لم أراه بعد؟ أقول مدافعاً:

- على الرغم من عدم رؤيتي له إلا أنني تابعته نقدياً من خلال العديد من المقالات... أعرف أن هذا ليس بكاف، ولكن لم لا تحك لي عنه؟

كنت أتابعها مأخوذاً بها وهي تسرد لي القصة. لم يكن في رأسي سواها. تلاشى البعلي والجو المحيط وما ترويه لي تماماً، فتوحدت مع شفتيها الممثلتين ذاتا الانفراجة النهمة. كانت ذات ثقافة عالية وضحت من كلماتها المختارة بعناية أثناء حديثها. ما إن انتهت من كلامها إلا وقلت لها:

- وتريديني بعد ذلك رؤية فيلم مثل هذا؟ انه ذات المسخ الذي رأيناه في فيلم الناظر، ولكن بشكل أكثر فجاجة.

تقول بينما عينيها تلمع ببسمة أخاذة:

- ولكن أعطيك ذلك الحق في الحديث عن شئ دون رؤيته؟
كان كلامها منطقياً، فاعترفت بخطأى. أقول موجهاً كلامي
للبلعي:

- ولكن كيف ربح هذا الفيلم على الرغم من عدم وجود حكاية
كل تلك الملايين التي تساقطت عليه كالمطر؟ هل صار
الجميع حولنا يمثل هذه البلاهة الفكرية؟
يقول متعجلاً:

- أنظر حولك لكل هؤلاء الجالسين حولنا.. أنتظن فيهم الثقافة
التي تبغيها في يوتوبيك اللعينة؟ إنهم مجموعة من الشباب
المتأزم تماماً كتأزمك الأبدى الذي يكاد أن يكون قد خلق
معك، إلا إنك وجدت في تأزمك انفراجة ما بالهروب إلى
توحدك مع ذاتك، واعتزال الآخرين مما يجعلني أجزم بأنك
مريض لأنك لجأت إلى الهروب من المجتمع بانفصالك عنه
بدلاً من مواجهة التغيرات الخطيرة الحادثة فيه وفلسفتها تبعا
لثقافتك، إلا إن هؤلاء اتخذوا طريقاً آخر يتناقض معك
بالذوبان التام فيما حولهم... انهم أبناء العولمة والكوكبة
والأمركة وما إلى ذلك من تلك الاصطلاحات اللعينة التي
تضجرنا ليل نهار... لقد تحولوا بالفعل إلى مسوخ فأخذوا
من العلم قشوره، ومن الثقافة فضلاتها، ومن الدين بقاياها،
وفضلوا أن يكونوا هكذا معجبون بشخصية باهتة مخمورة
مغيبة دائماً، لا تحمل سوي المطواة مثل اللمبي بدلاً من

التفوق على ذواتهم مثلك فيصيبهم الهذيان والأمراض
النفسية المستعصية.

- أتراني مريضاً أيها التافه؟

- صدقني لست أراك هكذا، ولكن عزلتك الطويلة التي اخترتها
بمحض إرادتك لا بد ستجعلك هكذا يوماً ما.

أرى لنا وقد زادت انكماشاً في مقعدها، بينما يديها
المكتنزتين قد ضمتهاما بالقرب من فمها لتنفخ فيهما محاولة
إعطاءهما شيئاً من الدفء الحميم، الذي لا بد أنه يستعر داخل
جسدها. أشفق على ذلك الجمال البرونزي الحي. كنت قد بدأت
أشعر بقشعريرة شديدة تسري في جسدي أنا الآخر. أينقل إليّ
شعورها بالبرد لمجرد إعجابي بجمالها اللافت للنظر أم أنني قد
توحدت معها في إحدى حالات الوجد الصوفية؟ أشعر بشعر
جسدي قد بدأ يقف نتيجة الانكماش الذي بدأ يسري في جلدي
المقشعر، حتى بات يبدو مرآة وكأنه ملئ بالثور. كم أتمني
زجاجة كاملة من النبيذ المعتق الآن علّه يساعدني على الدفء.
أقترح الأمر عليهم:

- ما رأيكم في كأسين من النبيذ علّه يذهب عنا تلك البرودة
القارصة؟

تقول لنا موافقة:

- أظن أنه تفكير صائب.

يرد البعلي برزانة:

- أعرف باراً قريب من هنا أزوره دائماً لسببين هامين؛ أولهما

أنه رخيص في أسعاره على الرغم من نظافته وتميز الخدمة فيه، ثانيهما لأنني أرغب دائماً تأمل عالمه البروليتاري البسيط من خلال رواه ذوي الحرف المختلفة، إلا إنني أظن أن هجوم المثقفين من أمثالنا لا بد سوف يفسد براءة طفولته البسيطة الساذجة.

تقول لنا، بينما أسنانها اللؤلؤية البيضاء تصطك ببعضهما من فرط البرودة:

- دعك من ذلك أيها المثقف وهيا بنا.

كان الوقت قد تجاوز الثانية بقليل. علمت ذلك من الراديو المفتوح قريباً منا، بينما صوت المذيعة يعلن العديد من الأخبار السوداوية المتتالية على ذلك العالم البائس. ينطلق صوتها عبر الأثير الليلي الهادئ مختلطاً بسيمفونية هادئة من الأمطار التي بدأت في التساقط، عن إعلان الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن بأن المهلة المقررة للعراق كي يكشف عن أسلحته النووية المزعومة قد شارفت على الانتهاء التام، وإنه ليس أمام صدام حسين خيار آخر سوى الحرب، التي لا بد ستكون سريعة ومفاجئة. أضحك في سريري ساخراً. نخرج ثلاثتنا من ركننا المنزوي في مقهى "أفتر ايت" صوب شارع محمود بسيوني المسمى قديماً بالأنتكخانة. لست أدري لم يحرصون على تشويه وسط البلد هكذا حتى في أسماء شوارعها القديمة. نتقدمنا لنا لتقع عيناى على ردهيها المحشورين داخل بنطالها الضيق المصنوع من الجينز. كان لحركتهما اهتزازاً راسخاً يكاد أن

يزلزل وسط البلد بمن فيها. يا لتلك الأرض التي تحمل مثل هذا الجمال المقموع داخل ملابسه، فتحبس قدرته عن الانطلاق الحر في جميع الجهات. كان اهتزاز ردفها داخل بنطالها الضيق يكاد أن يشعرك بهما راسخين، إلا أنهما لهما انسيابية كانسيابية الماء بين كفيك. لفظة سريعة من لحظها ذي التناقض الحاد بين الأبيض والأسود جعلتني أرتبك حينما لاحظتني ألتصص على جمال ردفها متأملاً. أشعر بسخونة ما تسري في جسدي ربما من الخجل إلا إن تلك البسمة العذبة التي بدت على محياها جعلتني أكثر جرأة. أتحاول إغرائي تلك الخلاسية الفاتنة، أم أنها تعرف ما لجسدها من سحر في عيون الآخرين فيكون لبسمتها معنى آخر، وهو الفخر بذلك الجسد ذي الهالة الأنثوية الطاغية؟ أتأمل تمثال طلعت حرب في وقفته وسط الميدان وكأنه وجد هكذا منذ الأزل. أقول بسخرية مريرة محدثاً ذاتي:

- ضاعت جهودك هباء أيها البطل بين أيدي حكومات من اللصوص المتعاقبة.

تتجه عيناى نحو مقهى ريش الذي امتدت له يد التغيير القبيح هو الآخر، لم يعد مقهى المثقفين بعد أن شهد صولات وجولات السبعينيات. صار لذوي النقود والطبقات المرفهة. أندھش لمدى التناقض في الأمر؛ فخلفه مباشرة هناك زهرة البستان الذي سحب البساط من تحت قدميه بجذبه للمثقفين والمتأقفين والدخلاء عليهم والمتعهرين. يا للتناقض الواضح بينهما. كثيراً ما تجرني قدماى نحوه لأجلس على واجهته متأملاً

رواده من الجنسين. في الأيام الأخيرة كثر رواده من المتعهرين والمتعهرات فهجره الكثيرون منّا. كنت كثيراً ما ألمح محمد ناجي بوجهه الهادئ ذي البشرة الداكنة المائلة للون القهوة المحروقة، ومشيته السريعة المستقيمة التي توحى لك إذا ما تأملتها بأنه يحجل ضاغطاً على إحدى قدميه، ربما لألم ما فيها، بينما يتجه مباشرة إلى مكتبه في وكالة أنباء الشرق الأوسط، وقد استغرقت عوالمه المختلفة التي نرى فيها ذلك الرجل الأبله وتلك المرأة التافهة. نعبّر الميدان بهدوء متكاسلين متأملاً الهدوء النسبي لوسط البلد في ذلك الوقت المتأخر نسبياً من الليل. القليل من رواد المكان ذي الطابع التاريخي العتيق ما زالوا يرغبون في التسكع مثلما نفعل تماماً، على الرغم من البرودة القارصة للجو. أتأمل سنتر طلعت حرب التجاري على الرصيف المقابل لنا فأشعر بامتعاض شديد. كان معماره الحديث على الطراز الأوروبي وكأن يد قبيحة امتدت فجأة لتظهر في مكانها غير اللائق وسط هذا العبق التاريخي العتيق. عند سينما مترو اقتربت منّي لينا لتشتبك يدها المكتنزة الحريرية الملمس بيدي. ليديها ملمس شديد النعومة حتى لكأنك تلمس إحدى القطع الحريرية الملساء. لم أدر ماذا أفعل فتركت لها كفي الذي احتضنته كفها ذات الدربة الخاصة، لتضغطه بالقدر الكافي كي تستشعر الدفء فيه. كنا قد ابتعدنا عن البعلي بمسافة ليست هينة حينما أتته مكاملة على هاتفه المحمول فوقف لاستقبالها أمام حلواني العبد، ذلك المكان المتخم دائماً بمريديه من مدمني ما

يقدمه من حلوي. ننتبه على صوته. كنا كطفلين تائهين في الملكوت السماوي الشاسع محاولين تلمس طريقهما في هذه الأبدية اللانهائية. درنا حول أنفسنا ونحن لا نكاد ندري شيئاً. أتأمل اكسلسيور بزبائنه القلائل ليل نهار. هذا المكان يشعرنى دائماً براحة نفسية عميقة حينما أجلس فيه وحدي متأملاً. تقع عيناى على إحدى الفاتتات جالسة خلف زجاجه اللامع في عزلتها الكائنة. أراها تتأمل دخان سيجارتها المنساب من مقدمتها ليرتفع في دوائر تتلاشى في الفراغ المحيط، بينما كأس البيرة أمامها قد انتصف. تقع عيناها على أثاء تأملها فتلوح في نظرتها دعوة مباشرة مفتحة وقحة للمشاركة في تلك العزلة. لي عزلي الخاصة بي، فلم أشارك غيري في عزله؟ كنت كثيراً ما أزور هذا المكان حينما تسمح ظروفى المادية المتأزمة فى معظم الأوقات. نجتاز الرصيف على ناصية شارع عدلى، ذلك الشارع التاريخى العتيق بمعبده اليهودى الذى عفا عليه الدهر. بالتأكيد كان ذلك المعبد يموج بحيوات مختلفة متواترة منذ أزمان بعيدة، هو الآن طى النسيان، لولا حراسة الشرطة المشددة أمامه ليل نار. أراهم دائماً فى وقفهم هذه، وكأنهم وجدوا هكذا معه منذ بدأت فكرة وجوده فى التخلق. كان الشارع بهدوئه النسبى الدائم يجذبني دائماً لتأمله، حتى لكأنه مدينة لها كيانها الخاص المنفصل عن كل ما يحيطها. كلما مررت فيه شعرته يوقف الزمن آنياً عند لحظة ما بعينها لست أدريها، حتى لكأن الوقت قد تجمد تماماً. أفيق من تأملاتي الدائمة على صوت

صرخة فرملة قوية انبعثت على إثرها صرخة حادة رائقة تشق الليل. كان مصدر الصرخة لنا ذات الحجرة العذبة. أراها تضع يدها على صدرها الذي يعلو ويهبط في حركات سريعة تدل على انزعاجها. تتطلق السيارة بعيداً مكتظة بمجموعة من الشباب والفتيات بينما صوت ضحكاتهم المتعالية حتى سحب السماء الحبل بالغيوم تتعالى صاخبة. ينطلق أحدهم معلقاً:

- أهذا وقت الحب؟ أظن أن الفراش سيكون أكثر رومانسية.

أنظر لعيني لنا متأملاً. رغم البرودة القارصة كانت يدها النائمة في كفي قد نضحت بالعرق، بينما وجهها ذو اللون البرونزي الجميل الهادئ قد اكتسى حمرة ما تزينه قطرات من العرق. أو تكون خجلي من كلام ذلك التافه؟ أم أن وقع المفاجأة كان ذا تأثير فسيولوجي ما؟ التفت عينا فابتسمنا، ظللنا واقفين في مكاننا برهة، بينما عينا لنا الواسعتان ذاتا التناقض بين الأبيض والأسود قد حاصرتني تماماً، حتى إنني ظننت أن الكون استحال كله إلى تلك العينين الأسرتين. عبرنا الطريق متجهين إلى البعلي، لنعبر شارع عبد الخالق ثروت بمبانيه ذات الطراز المعماري العتيق، والتي لا تزال محافظة إلى حد بعيد على عبقها التاريخي القديم. أتأمل الكشك الكائن على ناصية شارع الشواربي بأفلامه العديدة المتنوعة. تتوقف لنا بجانبنا متأملة. علّها ترغب مشاركتي الوجدانية في عمق اللحظة، أو

أنها ترغب في اقتحام ما يدور داخل عقلي. أقول لها مشيراً إلى
فيلم الدرجة الثالثة:

- هذا الفيلم يعد تحفة فنية على الرغم من قصته المؤلمة التي
واجهها به الجمهور والنقاد متضامنين من أجل ظلمه.

ينساب إلى أذني صوت البعلي العميق:

- أترغب في شراء شيء ما؟

- لا... كنت أتأمل فقط.

نواصل سيرنا متجاورين ليتعالى صوت كلب قادماً من
محطة البنزين المقابلة على الرصيف الآخر. تتزايد دقات قلبي
بينما تضغط كفي على يد لينا النائمة بوداعة داخلها. لاحظت
ارتباكي فنظرت إلى وجهي مستفسرة. أقول ساخراً من نفسي:

- نوع ما من الفوبيا الغريبة التي لازمتني منذ الصغر تجعلني
أخاف من الكلاب، حتى إنني قد أتركك الآن مطلقاً لساقي
العنان.

تتطلق منها ضحكتها المجلجلة الرائقة ذات الانسحاب الأخاذ
في عمق الليل مما يزيد بهجة وألقاً. أتأمل المبنى العتيق الذي
كانت جريدة الأهالي فيه قبل انتقالها إلى المقر المركزي لحزب
التجمع. كنت كثيراً ما أصعد هذا المبنى متجهاً نحو الجريدة
لأدخل على حلمي سالم بمكتبه الكائن على يمين الداخل. يا
الله... دائماً ما تمتد يد التغيير البغيضة للأماكن. عبرنا بجوار
دار المعارف بكتبها الزاخرة بكل أنواع المعرفة. أسمع لينا تقول

فجأة للبعلي:

- أين ذلك البار اللعين الذي دعوتنا إليه.. أم مجرد وهم في خيالك؟

أسمعه يقول ببطء:

- لو كنت انتظرت عليّ قليلاً لما تفوهت بهذا الكلام السمج.. ها هو أمامك مباشرة.

ثم يعتدل ليقول بلهجة مسرحية:

- تقدموا أيها السادة لتدخلوا بأرجلكم اليمنى إلى بار الطبقات المقهورة Cup D'or.

أتأمل المكان من الخارج، على يسار الداخل تماماً كشك سجائر يربط صاحبه ذو الحزن اليومي الدائم داخله، يتقدمنا البعلي بما أنه المتردد الدائم على المكان، ألحظ ممراً ضيقاً إلى حد كبير قبل أن ندخل من بابه الثاني الداخلي، الممر زاهر بالعديد من الرواد، ندخل من بابه الثاني إلى بار متوسط إلى حد ما. كانت القاعة مزدحمة عن آخرها بروادها المختلفين، بينما البار في مواجهة الباب تماماً متصدراً المكان، يبدو أن البعلي كان ذو شعبية خاصة في المكان؛ فقد تتالت عليه الترحيبات من العديدين. أرى النادل يرحب به فيطلب منه إخلاء طاولاة في إحدى الأركان المنزوية، لنكون في عزلتنا ذات العالم الخاص. تتقدم لنا متأرجحة في مشيتها، في مشيتها دعوة عامة للجميع كي يروا إبداع الخالق في جسدها. أرى عيون الجميع اتجهت إليها حتى لكان أرواحهم سوف تخرج من حناجرهم الغاصة

بالنبیذ. تجلس على كرسيها بهدوء لأجلس قبالتها تماماً، بينما
جلس البعلی بجواری متوسطاً إيانا. أقول هامساً بينما تعلو
وجهي ابتسامة:

- حنانیک سیدتی...

تنظر لي مندهشة. في دهشتها تساؤل لا يفارقك حتى
موتك، تراها في نظرتها الداهشة، وكأن عوالم عديدة زاخرة
بالأحداث الصاخبة قد اندثرت كي تتشكل عوالم أخرى أكثر
زهوة، وهكذا إلى ما لا نهاية. كانت نظرتها المتسائلة تغني عن
الكلام. أقول باسمأ مأخوذاً بتلك العينين:

- ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء.. مشيتك
الراقصة المنسابة ذات الأثرية الخاصة متضافرة مع جمال
جسدك المترجرج في كل همسة تصدر عنك كادت أن تذهب
بأرواح الجميع من حولك.

ألمح في عينيها ضوءاً ما يبرق كضوء البرق الخاطف،
يتعالى حاجباها المرسومان بدقة شامخة. يا لتلك الخلاسية
الفاتنة. إنها تعي جيداً ما لحضورها من سحر خاص، تقول
بتعقل:

- أنتم هكذا معشر الرجال ليس في رؤوسكم سوي السيکس كي
تفكرون فيه.. إذا لم أكن أعرفك من قبل، وسمعت حديثك
هذا لما اختلفت عندي عن أي شخص آخر ممن يحيطونك
هنا.

صدمني ردها الذي لم أكن أنتظره، ترى هل تحاول إهانتني
تلك الخلاسية الجميلة؟ آخذ الكلام على محمله السيئ، وكأنها
تتربص بي شراً؛ فأردت أن أرد إهانتها متظاهراً بأن حضورها
الثري لا يمثل لي أي شئ على الإطلاق، إلا إن قدوم النادل
ليسألنا عما نطلبه جعلني أحجم عما كنت أنتويه، طلب البعلي
لنفسه بيرة، ووافقته لينا على طلبه، ففعلت مثلهم. أحول نظري
بعيداً عن لينا محاولاً تأمل المكان. العديد من العمال ذوي المهن
المختلفة يملئون المكان، يرتفع صوت أحدهم مقهقهة في عالمه
المنعزل عن الآخرين محدثاً جاره، بدا وكأنهما يتحدثان في
أمور جنسية خاصة، أتأمل الجميع فأراهم مجموعة من الجزر
المنعزلة التي يتميز كل عالم منها ببهائه الخاص، يأتي النادل
بالعديد من أطباق الجزر وشرائح الطماطم والتمرمس، كانت
الكميات التي أتى بها زاخرة وكأنها دعوة إلى وليمة، يضع
زجاجات البيرة والأكواب الفارغة النظيفة جوارها، أتناول
زجاجتي هامساً للبعلي:

- هذا المكان بالفعل لا بد سيتم تشويبه إذا ما زحفت جيوش
المتقنين من أمثالنا عليه، وها نحن أول بوارد التشويه.

يقول متذمراً:

- لماذا تحاول فلسفة الأمور هكذا؟ أما أن الأوان للتخلي عن
تلك الحالة المستعصية؟

أقول مروراً:

- وإذا تخليت عنها، ماذا يبقى لي؟

ألقي سؤالي، بينما أتجرع نصف زجاجة البيرة مباشرة
جرعة واحدة، تتأملني لينا محاولة التأقلم مع سلوكي المتناقض،
بينما يهبط كأسها من على شفتيها القرمزيتين متناولة باليد
الأخرى إحدى قطع الجزر التي تقضمها، أتأمل كأسها الناصع
الملئ حتى حافته بسائله الأصفر ذي الزبد الأبيض، بينما حافته
شوهت تماماً باللون الأحمر القرمزي، الذي يطلي شفتيها، أقول
للبعلي هارباً من أثر تلك الشفتين:

- هل قرأت كتاب "نهاية الإنسان" الأخير لفوكوياما؟

ترد لينا بهدوء واثق:

- تقصد "نهاية التاريخ".

أستشيط غضباً. يا لتلك الخلاسية المتبجحة، أتزايد عليّ في
معرفتي اللانهائية؟ أم أصابها الغرور بجسدها العارف لجميع
فنون المعرفة حتى الباطنية منها؟ ولكن ما لهذا النشاط الجسدي
بنشاطي العقلي؟ أقول محتداً:

- للأسف.. النقص عندك وليس عندي، صدر الكتاب منذ فترة
بترجمة للدكتور أحمد مستجير.. حاولي أن تكوني أكثر
متابعة ثقافية..

ألقي كلامي الذي تساقط على المكان كالصخور العظيمة
الهائلة، بينما يدي ترتفع بزجاجة البيرة التي أجرعها حتى
آخرها. شعرت بمدي فجاجتي في الحديث معها عندما رأيت
عينيهما الجميلتين تنظران إلى اللا شيء، أقول نادماً على إيذائها:
- آسف لم أكن أقصد.

أندھش لردھا المتجاہل، فتقول:

- لم لا تحاول شرب البيرة بالكأس؟ أظن أنه سيكون أفضل.

يا لقدرتها على تجاهل الإهانة، وكأنها لم تكن موجهة لها،
نجحت في تفاديها ببراعة تحسد عليها. يقول البعلي بدهشة:

- الكثير من الأصدقاء يؤكدون لي أنني أشرب البيرة سريعاً،
إلا إنني لم أرَ من هو أسرع منك في فعل ذلك.

- سيدي القدير.. تلك البيرة لا يتم تناولها إلا هكذا.

أشير بيدي إلى أعلى بالزجاجة وكأنني أترعها قائلاً:

- دفعة واحدة؛ كي تشعر بلذعتها.

أطلب من النادل زجاجة جديدة، يأتي بها إلا إنني ما إن
اتجهت بيدي نحوها حتى سحبتها ليना بكفها المكتنز الرقيق ذي
الأصابع المدببة الرقيقة لتصب منها القليل في أحد الكؤوس،
قدمت لي الكأس برقة أنثوية عجيبة قائمة بهمس:

- هكذا أفضل.

أندھش للدور الذي تقوم به، أتمارس وصاية على سلوكي؟
ليس هناك علاقة خاصة تربطنا كي تقدم على ذلك الفعل، أحاول
التغاضي عما تفعله حتى لا أزيد من حرجها، أتناول الكأس من
يدها لتتلامس أصابعنا، رعدة خفيفة شملتني فلم أقوَ على مفارقة
أطراف أصابعها، أشعر بعد فترة وجيزة وهي تسحبها ببطيء
وكانها خجلى، كان البعلي قد بدأ ينظر في ساعته عدة مرات،
مما أوحى لي بأنه على وشك الانصراف، ما أن انتهى من
زجاجته حتى قال:

- هيا بنا..

أقول منزعاً:

- إلي أين؟

- ألن تنصرفاً؟

- لا.. سأبقي قليلاً.

ينظر إلى لينا متسائلاً، إلا أنها قالت بعد فترة تفكير:

- سأبقي قليلاً.

ألقي علينا تحيته بلا مبالاة ثم أسرع بالخروج. أتأمل لينا، كنت مصمماً على محاصرتها بنظراتي مما جعلها تهرب بعينيهما عدة مرات إلى التلغاز الكائن خلفي، أتأمل نهديها النافرين الراسخين اللذين يستقران على الطرف الآخر للطاولة، كانت ترتدي بلوزة شديدة الضيق، يكاد نهذاها أن يمزقها من فرط شعورها بالعجز عن الانطلاق، أتأمل دورانهاما الرحب ذا الكيان الخاص متخيلاً ملمسهما الحريري عاريين فتنتابني رغبة تسيطر عليّ، أرى عينيها تراقباني فلا ينتابني أي شعور بالخجل، بل أواجهها بنظراتي ذات الرغبة الوليدة. تقول بهدوء:

- أأست معي أنك شديد الجراءة في نظرتك؟

أقول باسماء:

- معذرة.

تبتسم لتقول:

- رغم جراءة تلك النظرة المتأملة إلا أنها ليست جارحة، بل لقد

شعرت وكأنها تهددني.

- لينا.. أنت بارعة الجمال.

- أعرف ذلك.. ولكن ألا تري فيّ سوي جمالي؟
أقول صادقاً:

- بل أنا مبهور بعقليتك وثقافتك أيضاً.

- لو لم تقل ذلك لنفرت منك.. هل لا زلت غاضباً؟
- مم؟

- حين قلت لك أنه ليس في رأسك سوي السيكس.

- على الإطلاق.. لقد نسيت ذلك، ولكن بالفعل لك تأثير خاص
في المكان.. كيف تريدني أن أرى ذلك الجمال ثم أنكره،
ألست معي أني إذا تجاهلت ذلك أكون كاذباً منافقاً؟

تومئ برأسها موافقة بينما الموسيقى المميزة لموجز الأنباء
ترتفع من التلفاز الكائن خلفي، أقوم لأجلس جوارها كي أرى
الموجز، يتماس فخذها المجاور لي بفخذي فتستعر داخلي رغبة
لا تريد أن تفارقني، أرتاح لملمسها فأترك فخذي ترتاح على
فخذها، يلقي المذيع خبر التهديد الأمريكي للعراق بالحرب إذا لم
تسلم كاشفة عن أسلحة الدمار الشامل، يا لذلك البوش المتعجرف
البغيض، يبدو وكأنه امتلك العالم ليحركه كما يهوى، أو كما
يحرك تماماً قطع الشطرنج. أسمعها تقول:

- هذه الأسلحة الضخمة التي يتم شحنها للخليج كافية كي تبديد
منطقة الشرق الأوسط بأكملها وليس العراق وحده.
أقول ثائراً:

- ليذهب جميع الحكام العرب إلي الجحيم ومعهم شعوبهم.. لينا،
العيب ليس في الآخر ولكنه فينا، نحن أمة يحكمها مجموعة

من اللصوص، يحاولون أن يبنوا مجدهم الخاص على حسابنا كشعوب.

كان وجهها ذو اللون البرونزي الجميل قد اكتسب حمرة داكنة من أثر البيرة، كانت قد تجرعت ثلاث زجاجات مما أكسبها بهاء مضاعفاً. أقول هامساً:

- ألن تنهضي؟

تتحرك فخذها النائمة تحت فخذي بدلال لتقول:

- هيا بنا.

تقولها بينما تنتظر لي نظرة كثيراً ما تحيرت في تفسيرها، فيها الكثير من الإعجاب، والكثير من الرغبة، والقليل من العاطفة، ولكن كيف يكون ذلك ولقاؤنا عمره بضع ساعات قليلة؟ كنت أتأمل عينيها القريبة مني فلم أدر إلا وشففتها المكتزتين ذات الانفراجة الداعية للعشق، وقد انطبعت على خدي الملتهب من أثر الحرارة، لم أدر ماذا أفعل فارتبكت، أسرع ناظراً حولي، كنت أخشى أن يكون أحدهم قد رآها، أ جذب يدها المكتنزة لأخرج بها سريعاً، بينما ساقاي تكادان أن تتعثرا فتوقعاني أرضاً، نخرج إلى عرض الشارع ليتلقفنا برياحه الباردة التي تتكسر على جسدينا الساخنين، تلتف ذراعها حول خصري، فأحيط كتفها الدائرية الممتلئة دون إسراف. أقول غاضباً بينما صوتي تشوبه بعض الرغبة الحانية:

- هل جنت؟

- لم؟

تقولها مندهشة، وقد اتسعت حدقتها ذات اللونين المتناقضين.

- أتقبلينني داخل البار أمام هذا الجمع الغفير؟ لو رأوك لانتقضوا عليك ناهسين إياك ظانين أنك إحدى الساقطات.

تطلق ضحكتها الصافية ذات الانسحاب الأخاذ، فيتردد صداها في ليل وسط البلد، تقول وكأنها تحدث طفلها الصغير:

- صغيري، يبدو أنك لم تعرف وسط البلد جيداً.. هذا المكان الراسخ في عمق التاريخ له قوانينه الخاصة، التي تختلف عن أي بقعة من بقاع الأرض.. هنا تجد أشياء غير معقولة، وقد اكتسبت عقلانيته، وأشياء أخرى لاعقلانية ترتدي ثوب العقل، كيف تعشق مكاناً وأنت جاهل بقانونه الخاص؟

أسألها متحيراً:

- ألي أن أسالك إحدى أسئلتِي الغبية؟

- لك ما تريد.

- لماذا أقدمت على تقبيلي هكذا؟

تقول متحيرة:

- لست أدري.. كل ما هنالك أنني شعرت برغبة تملكنتني تدفعني لذلك فلم أستطع عصيانها، وفعلت، أتدري أن هذه الرغبة أشعرها منذ كان البعلّي جالساً معنا، إلا إني كنت أحاول كبحها، لكنها انفلقت مني فجأة؟

أصمت شاردًا. يا لتلك المكبوتات التي لا تنتهي، لست أدري لم قدر علينا كمجتمع أن نحيا في كل هذا الإرث من المكبوتات، أتذكر البعلّي بنظاراته الغليظة ووجهه الثائر المكظوم

وقد احمر حتى كاد أن ينفجر، قليلاً ما كانت تنتابه مثل هذه الحالات، ولعلّي كنت الوحيد القادر على إيصاله إلى تلك الحالة من العصبية إذا ما تناقشنا سوياً. يقول:

- لم هذه السلبية في سلوكك؟ لست أدري كيف تكون بهذا القدر من الثقافة وفي ذات الوقت لا تهتم بما يدور حولك من فساد سياسي وإبادة للفلسطينيين، أليس لهذا الوطن عليك حق؟

أشعر بغصة قاتلة في حلقي تمنعني من ازدراد أي شيء حتى لعابي، يا لهذا الوغد الذي يحاول اخراج آلامي الخاصة التي أحاول دفنها في أعماقي المظلمة. أقول بعد فترة:

- بل لهذا الوطن كل الحق أيها الثائر، ولكن ماذا ستفعل له ولهؤلاء الفلسطينيين المستضعفين سوي الصراخ لتكون المحصلة النهائية لا شيء؟

يخيم علينا الصمت حتى لكان الكون قد انهار تماماً. أقول بعد فترة زافراً بحرقة:

- لن تستطيع لا أنت ولا غيرك تغيير أي شيء على الإطلاق، إنها سياسات أخرى يبدو أننا نعجز تماماً عن فهمها. أفريق على صوت لينا الملائكي تقول بهمس:

- هل غضبت؟

أقول شاردا:

- لا.. على الإطلاق.

كنا قد خرجنا من شارع عبد الخالق ثروت متجهين ناحية

ميدان الألفي، ذلك الميدان القديم المكتظ بملاهيته الليلية الصاخبة، ننحرف عند ناصية طلعت حرب في تقاطعه مع 26 يوليو المسمى قديماً بفؤاد باشا بجوار الأمريكيين، أذكر الحادث الذي حدث لي هنا في بداية الليل، أذكر لها نظرة البائع الذي استراب في ظاناً أنني أحد سارقي الكتب فتضحك مجلجلة، أتأمل سينما ريفولي بما تعرضه من أفلام تدعوك للقيء، أقول لها بحزن شديد بدأ ينتابني:

- أتذكرين قولاً للدكتور محمد عصفور يقول "عندما يصيب الفساد القمة فإنه ينحدر كالسيل جارفاً أمامه كل الارادات والقيم؟"

- أجل.. ولكن ما الداعي لهذا الآن؟
- إنه أكثر الأقوال تعبيراً عن هذا المجتمع البائس الذي نعيش فيه.

تصمت برهة لتسألني:
- لم تقل لي.. أين تسكن؟
- هنا في معروف.. في إحدى البنايات القديمة، إلا أنها ما زالت شامخة تقاوم التغيير.
تقول مسترسلة وكأنها لم تسألني قط، أو أنها لم تنتظر مني إجابة:

- لكنك لم تحك لي قصة التآمر التي ذكرتها عن فيلم الدرجة الثالثة.. ألن تفعل؟

اهتمامها بما أهتم به له أثر عظيم على ذاتي، أنظر إليها متأملاً شاعراً بشيء عظيم من الامتتان والاقتراب من

شخصيتها التي بدأت ألفها، حتى لكأنني أعرفها منذ قرون مضت. أقول:

- أتودين سماعها بالفعل؟

تقول صادقة مندفة:

- بالتأكيد.

أنظر إلى ساعتني، كانت قد قاربت الرابعة، أقول لها متردداً:

- أقبليْن دعوتي على كأسين من النبيذ في منزلي المتواضع بينما أحكيها لك؟

كنت أخشى رفضها، إلا أن مشيتها ذات الإيقاع الخاص ظلت مسترسلة بينما ذراعها تحيط خصري، أنظر إليها متسائلاً، إلا أن وجهها كان مطرقاً نحو الأرض، وكأنها تبحث عن شيء ما. عند ناصية 26 يوليو مع شارع رمسيس، ذلك الشارع الضارب بعمقه في التاريخ، والذي شأنه كشأن وسط البلد كلها امتدت له يد التغيير والتشويه حتى في اسمه، فتغير من شارع الملكة نازلي إلى شارع رمسيس، ننحرف يساراً باتجاه ميدان التحرير، كنا على بعد خطوات قليلة من منزلي العتيق، في الطابق السفلي تكمن العديد من السيارات المختلفة ذات الماركات الحديثة، كان قد استولى على ذلك الطابق أحد الرأسماليين ليحوّله إلى معرض للسيارات، كثيراً ما كنت أتأزم حين رؤيتي لذلك المعرض بذوقه الفني الحديث ذي الطراز الأوروبي مشوهاً الجمال القديم للبناية، ندلف من الباب العالي العتيق الذي يفضي إلى ردهة واسعة يوجد على جانبيها سلم لولبي كبير ذو إطار

قديم من الخشب بدرجاته الخشبية المرتفعة، والتي تثن مصدرة
أزيراً مزعجاً تحت ثقل الصاعد عليها، كان السلم شديد القدم
تلوح عليه تواريخ الأيام الغابرة، نصعد مستندين على بعضنا
حيث الطابق الرابع، أتأمل لينا فإذا أنفاسها متلاحقة لاهثة لاهبة
شديدة القرب من وجهي، أشرد في وجهها ذي اللون البرونزي
المشرب بالحمرة الخفيفة، لم أقو على المقاومة، هل من بئس
يستطيع مقاومة هذا الجمال؟ أقترب من شفتيها الممثلتين ذاتا
الانفراجة الداعية منذ القدم فأتناولهما بشفتي ممّصاً رحيقهما
العذب الذي لا بد سيشعرنني بالارتواء بعد تعطشي الشديد لهما،
يا لتلك المرأة البارة، كانت كمن ينتظر تلك الانفجاة مني،
فاندمجت الشفتان في حركة دائرية لانهائية لأشعرها تضغط
على شفتي بأسنانها اللؤلؤية ضغوطات خفيفة واهية، دغدغة
أسنانها على شفتي السفلى تزيدني التهاّباً مما جعلني أكاد أفقد
توازني، تشدّ ضغوطاتها الواهية حتى كادت أن تدمي تلك الشفاه
التي تأكلها بنهم بين أسنانها، ينطلق لسانها العذب في فمي
كاليعسوب الصغير فتزيدني وهجاً، أضغطها في صدري لأشعر
بليونة عجيبة تسري بين ذراعي. أليس لهذه المرأة من هيكل
عظمي؟ وإذا كان لها فمن أين تأتيها تلك الانسيابية الفاتنة؟ لم
أدر كم من القرون مرت علينا هكذا إلا بعد أن انفصلنا لاهثين،
أنظر إليها متأملاً، فأرى عينيها ناعستين نائميتين في عالمهما
الخاص ذي الألوان البنفسجية الحمراء اللازوردية، أتكون
روحها الآن في رحلة من تلك الرحلات التي تترك فيها الجسد
كي تجول كيفما اتفق لها بعيداً عن الثقل المادي للجسد؟ كانت

الرغبة المفعمة قد زادت حسنها فتنة فلم أقو كثيراً على النظر إليها، أفتح باب شقتي العتيقة لندخلها بينما رائحة عتيقة تهب علينا من داخلها، يا لذلك الرائحة التي لا تكاد تفارقها، كانت خليطاً من رائحة الكتب القديمة وأنواع النبيذ المختلفة المختلطة برائحة الموتى، ولكن أيسكن معي بعض الموتى، أم أنا الذي كنت قد تحولت إلى جثة منذ زمن بعيد حينما فضلت عزلتي الدائمة عن كافة الخلق معتقداً في ذلك أنني بهذا السلوك سوف أبتعد عن وباء جهلهم المستमित، كنت دائماً ما أخشى أن أصاب بجهالة إذا توحدت مع الآخرين ففضلت ما أنا عليه من العزلة، أكون مريضاً نفسياً كما سبق أن اتهمني البعلي منذ ساعات؟ أتجه نحو الثلاجة لأخرج زجاجة نبيذ، أترك لنا تتأمل الشقة العتيقة ذات الأرضية الخشبية كما يحلو لها، لم أدر إلا بنسيميها الأخاذ يجاورني بينما عيناها تنظران لي في رحلة أبدية لا تنتهي من الرغبة العاتية، ترتعش كفي الممسكة بالزجاجة فينسكب القليل منه على الأرض بدلاً من الانسكاب داخل الكأس. نقول منزعة:

- ماذا دهالك؟

- لا شيء.

تتناول الزجاجة من يدي لتقوم بصبها داخل كأسين بينما أتجه إلى أحد المقاعد العتيقة داخل الردهة لأنظفها مما علق بها من تراب كثيف، منذ زمن بعيد لم أجلس في تلك الردهة، ربما لأنه لم يكن أحد ما يزورني، كانت جلستي الدائمة في مكتبي الخاصة، تلك الغرفة التي تحفظني وأحفظها لطول عهدنا

ببعض، أنتبه على صوتها قادمة لتقول لي بينما يدها تمتد
بالكأس:

- أتعرف محمد البعلي منذ زمن بعيد؟

أشرد في عوالم بعيدة عنها، أيام الصبوة والانطلاق، كانت
أيام ما زلنا نتشكل فيها سياسياً وثقافياً، أراه بوجهه القديم وكأني
أعرفه منذ الأزل، كنت قد قلت له نكتة قبيحة من تلك النكات
التي أحب قولها دائماً، ثم سببته بكلمات وقحة، يقول متعجباً:

- لست أدري كيف يحلو لك قول مثل هذا الكلام القبيح تشبهاً
بالآخرين من العوام، ألا تخجل من ثقافتك التي تشوها بمثل
هذا السلوك؟

أقول مداعباً:

- دعك من هذه الجهامة والجدية الزائدة، التي تحاول التحلي بها
دائماً.. لا تكن كهؤلاء المتأسلمين الذين لا يعرفون كيف
يمارسون فن الحياة والنهل منها، وإلا ستصيبك جميع
الأمراض النفسية المستعصية.

يعرض عن قولي قائلاً:

- أعتقد أنك في حاجة لمراجعة سلوكك.

بحزن بدأ ينتابني:

- صدقني، لولا هذا السلوك العجيب الذي أسلكه لانفجرت غيضاً
من كل ما يحيطنا.

أزفر محدثاً ذاتي، ما لتلك الفاتنة تنبش في الماضي البعيد؟
أقول بعد فترة جالت فيها عينايا على كنوز جسدها متألمة:

- البعلي صديق منذ أيام الدراسة الجامعية، ولعله الوحيد الذي
ما زلت محافظاً على صداقته حتى الآن.

نقول وقد ارتشفت رشفة طويلة من كأسها:

- لست أدري، في أحيان كثيرة لا أرتاح لطريقته اللامبالية في الحديث، فأرغب في تحطيم رأسه بأي شيء أمامي.

كنت قد ارتشفت بعض النبيذ فلم أستطع ابتلاعه حينما سمعت قولها، أضحك مقهقهاً لأقول من بين ضحكاتي المتتالية محاولاً تنظيف ملابسي من النبيذ المنسكب عليها:

- لو فعلت لما تحرك قيد أنملة، أيتها المفتونة بجمالك ..
أتريد من الجميع الافتتان بذلك الجمال فيقدمون لك فروض
الولاء والطاعة؟ أشعر أحياناً أنك ترغبين دائماً في النظرات
الولهة المخلصة من عيون جميع الرجال المحيطين بك.. أنا
مخطئ في ذلك؟

نقول شامخة:

- أتراه نوعاً من العيب أن أشعر بمدى ساحرية جمالي وتأثيره
على الآخرين؟

- ليس في هذا ما يعيبك، ولكن الحقيقة التي لا بد أن تدركها
جيداً هي أن ذلك الجمال ذا الأثرية الخاصة في حاجة إلى
من يستطيعون تقدير الجمال وتذوقه.. إنه في حاجة إلى
هؤلاء ذوي الدربة الخاصة على الإحساس بالجمال، حتى
وإن كان وسط غابة من القبح، أما هؤلاء الذين يحيطونك في
هذا المجتمع القبيح فقد اكتسبوا تلك السمة من مجتمعهم،
وصاروا قبيحي الأرواح تماماً كمجتمعهم، فكيف تجيئين بعد
ذلك كي تطلبي منهم تذوق الجمال، حتى ولو كان باهراً

يستطيع الكفيف رؤيته وتذوقه قبل المبصر؟ انظري في
فلسفة الجمال كي تدركي جيداً أن الجمال منبعه الداخل وليس
الخارجي القابل للتغيير والتشويه، لا بد أن تكون ذاتك ذات
جمال خاص أولاً كي تستطيعي إدراك ما هو خارجها من
جمال، أما هؤلاء الذين لا يستطيعون فعل ذلك فقد تم تشويه
دواخلهم منذ زمن، وليس هناك أمل من أجل تجميلهم.

كانت تستمع إليّ متأملة، في نظرتها تلك البسمة الجميلة
الصافية التي تدعوك دائماً للارتقاء في أحضانها متناسياً العالم
وما يدور فيه من قبح قديم، اكتسب وجهها البرونزي حمرة
داكنة حتى لكانها على وشك الانصهار بالرغم من برودة الجو،
أراها تترك كأسها لتتخلص من بلورتها ذات الياقة المرتفعة
المحيطة بعنقها الجميل، كانت شديدة الضيق ترسم كل ثنية من
ثنيات جسدها فخيّل إليّ أنني أستمع إلى حفيف ما ينطلق من
جسدها الذي تحرر من سجن تلك البلوزة الصارمة الضيقة،
تجلس ببنتالها الشديد الضيق بينما نصفها العلوي لا يستتره
سوي سوتيانها الضيق، الذي يقيد حركة نهديها الشامخين، ألمح
عرقاً خفيفاً ينسدل بين النهر الجاري المتوسط لنهديها فيكسب
منظرها فتنة، أتأملها في سوتيانها الصغير الذي يكشف من
نهديها أكثر مما يستر فأدخل في دوامات غريبة من الشطح
اللانهاية. تقول لي بجرأة غير معهودة بينما كفها المكتنز يمتد
إليّ داعياً:

- إذن هل تستطيع الشعور بمثل هذا الجمال؟

لم أستطع تحويل عينيّ الزاهلتين عن جسدها الخلاسي، هل هي في حالة اختبار دائمة لي تلك الفاتنة؟ أم أنه تأثير الخمر الذي سرى في جسدينا يعطي الأشياء بعداً آخر غير ذلك الذي يراه الآخرون؟ أنهض من مكاني متطائراً غير شاعر بما أفعله من أثر الخمر القوي الذي أشعر له ديبياً كدبيب الرغبة السارية مع دمي متمهلة مذعنة. أرتمي جوارها بينما ذراعها البضة تحيطني ضامة إياي إلى صدرها، تستريح رأسي على نهدية راسخة فأستمع إلى دقات قلبها المنتظمة الهادئة تأتي من العمق مصحوبة بطنين ذي رجع أخاذ، تتحسس يدي ظهرها بنعومة حانية لتفك مشابك سوتيانها الضيق، الذي تسمع لصوته انفجاراً قوياً حينما يحرر أسر النهدين المختنقين. أتأملهما مدققاً في ذلك الحز المنغرس عند أطرافهما من جراء اختناقهما بالسوتيان الضيق، أقول في سريرتي، كيف لهذا الجمال المنطلق أن يكبح جماله هكذا؟ أقول هامساً:

- كيف تعذبين هذين الطائرين المنطلقين بهذه الأسوار القاسية؟
أعتقد أنهما بلا سوتيان أفضل.

تضمني إليها فأغمس وجهي الغارق في شموخهما المستमित، أتناول حلمتها النافرة بشفتيّ لأمتصها حتى الموات الأخير واستكانة الجسد التي لا يأتي بعدها سوى العدم، ريح هائلة شديدة السخونة محملة برذاذ الخمر ذي الرائحة العتيقة تنطلق من فمها حينما أكز على حلمتها بحنو، فيها الكثير من الفحيح اللاهث، الكثير من الرغبة اللاهبة، لم أدر كيف تخلصنا

من عبء ملابسنا إلا حينما انتبهت على احتكاك اللحم ذي
المذاق الخاص، أراها نائمة بجسدها ذي اللمعة البرونزية
الخاصة، نهدان يرفضان الاستكانة الدائمة فتراهما أبدا نافرين
مدججين وكأنهما خلقا هكذا غير قابلان للتفاوض أو الاستسلام،
لهما شموخ عجيب فتراهما واقفين راسخين رسوخ جبال
الأرض جميعا، ينزلق بطنها الهضيم الراسخ متوسطاً إياه عمق
لا نهائي يتغذى منه ذلك الجسد في الأزمنة البعيدة من خلال
مشيمة خاصة بها وحدها، يتلوه قبة سماوية عالية ذات بعد
خاص في أرجاء المكان لتنزلق على اللاشئ محلاة بزغب
كثيف من أدغال شعر عانتها الذي يصنع لها لوحة وحشية
شديدة القسوة والجرأة، أتأمل ساقها الملفوفتين وأتساءل، هل هذا
الذي نحن فيه من فرط الخمر أم أنها الرغبة التي ولدنا بها منذ
الأزل تحركنا مسيطرة على تفكيرنا؟ أرى في جمالها النائم
لوحة عجيبة من الجمال تكاتف من أجل صنعها جميع فناني
الأرض قاطبة فخرجت من تحت أيديهم كأبهى ما يكون،
أويكون الله قد تفنن في تشكيلها وحدها متجاهلاً في ذلك كل ما
هو جميل في هذا الكون من أجلها؟ أنظر لعينيها النائمتين
اللواتي تدعوانني للاندماج الآني الذي لا ينتهي إلا إذا تلاشى
العالم وتحول إلى لا شيء. أقبل كل جزء من جسدها هائماً فيها.
مثل هذا الجسد لا يُضاجع، بل يُوضع هكذا في أرقى معارض
الأرض للفنون التشكيلية ليكون لوحة حية حقيقية تعرض الإبداع
في خلق الجمال، لم أقو على السيطرة على مشاعري فأخذتها

عنوة مضاجعاً إياها بينما أذني لا تستمع إلا لصوت تأوهاتهما
المنتشية الجميلة التي تتطلق في عمق الليل الذي قارب على
الانتهاء كي تصعد مع الأثير نحو السماء العالية التي لا بد أنها
تشاركنا زفافنا الأسطوري الآن، يخيّل إلى أن هناك عدداً لا
نهائي من الملائكة المحتفلة بحبنا الجسدي ذي الألق، والحميمية
الخاصة يدورون حولنا مباركين إيانا فأغوص في عوالمها
اللازوردية اللانهائية منتشياً.

شطحات لحظية

كنت قد استمعت إلى نصيحة ليّنا، تلك المرأة الواعدة
بدهشات متتالية مختلفة، فانتجّعت على اثر انتهاء محادثتنا
التليفونية إلى الحمّام علّ الماء البارد يستطيع أن يطفئ شيئاً من
غلمتي التي استعرت داخلي عند سماعي تلك المتأودة، أتذكر
أحد حواراتي التي غاصت منذ زمن في بحر الذاكرة، فأبتسم:

- إنك تحيرني كثيراً معك.

أقول مندهشاً:

- لماذا؟

- شخص في علمك وثقافتك، بل ودرائتك التامة بكل مستحدثات
الأمور، من أين يتأتى له الوقت لفعل كل هذا، بالإضافة
للكتابة الدائمة للعديد من المشاريع الفكرية والسينمائية رغم
غلمته الجنسية المستعرة فيه منذ الأبد حتى إنه على استعداد
تام لممارسة الحب ليل نهار؟

كنا قد انتهينا لتونا من إحدى رحلات الجسد ذات العبء
المادي لتتطلق روحانا الخفيفتان إلى عوالمها الأثيرية المختلفة،
كان جسداًنا في حالة أوج شامخة بذلك العري القدسي الذي ولدنا
به منذ بداية الخليقة، راحة قصوى كانت تتناوبنا حينما كنا نتخلى
من عبء ملابسنا ذات الطابع المدني النفاقي، كم هو جميل أن
يبقى الإنسان هكذا مجرداً من كل شئ في حالة نكوص إلى

جماله الوحشي الأول، أهبط من فراشنا بينما جسدي يلمع
بقطرات العرق، أتناول كأسانا لأناولها واحداً، أرشف من كأسي
شارداً لأقول لها:

- أذكر أن أحدهم قال إنه في حالات الانكسار القومي والحروب
الطويلة يلجأ الإنسان إلى التغلب على تلك الحالة بالانغماس
في ممارسة الجنس، والإحصائيات التي تجرى في مثل هذه
الأوقات تدل على أن أعداد المواليد تتزايد بأشكال كبيرة في
هذه المراحل البغيضة من عمر الإنسان.

كنت واقفاً خلف زجاج النافذة متأملاً السماء الحبلى بالنجوم
الناصعة، أرى إحداها تتبض بألق أخاذ ثم لا تلبث أن تتطفئ
مظلمة، أشاركني حالتي الوجدانية المنكسرة، أم أنها مجرد
خيالات صورها لي عقلي؟ أشعر بحفيف جسدها يمزق الهواء
المحيط حينما تقترب من ظهري ملتصقة بي من الخلف، نهذاها
الملتصقان بظهري لهما ملمس لذيذ حينما تحيطني بذراعيها
مطوقة إياي فتضغطني ضغطات متوالية، أشعر بها تقبلني في
عنقي فتدغدغني قائلة:

- لماذا تعاني من الانكسار حبيبي؟ ألسنت معك دائماً؟
أقول وكأنني لم أسمعها:

- لو كان قد أسعدك الحظ برؤية إنسان مكتئب غيري لكنت قد
لاحظت أنه ما من سبيل له للخروج من اكتئابته المزمن إلا
بطريقتين.. إما الإغراق في الجنس، أو الإغراق في الأكل
بشراهة حتى يصبح كالبالون المنتفخ من فرط الطعام،

والعجيب أنه لا يلبث أن يقبض كل ما تناوله من طعام ليعود لذات الفعل مرة أخرى، وهكذا في دائرة مفرغة لا تكاد تنتهي حتى تبدأ من جديد.

تقول شاردة:

- إنك تذكرني بحديثك هذا بالأميرة ديانا؛ حيث كانت تفعل ما تقوله بالضبط، أذكر أنني رأيت لها إحدى الصور على شبكة الإنترنت بعدما تناولت كميات هائلة من الطعام.

أراها وقد ارتسمت على وجهها علامات الاشمئزاز لتقول:

- لا يمكنك أن تتخيل هذه الرقيقة وقد انتفخت تماماً حتى صارت كالبالون، لقد كان شكلها بشعاً، غاية في البشاعة.

أضحك فجأة ضحكة عالية مما أثار استياءها، تقول

غاضبة:

- علام تضحك أيها البارد؟ أعلى كلامي أم على منظر الأميرة الرقيقة التي أتحدث عنها؟ أقلت لك نكتة؟

أقول معذراً:

- إنني أضحك على نفسي، لقد تذكرت أحد الأصدقاء، كان كثيراً ما يتساعل عن السبب الغامض في عشقي الشديد للجنس، كان يقول لي دائماً إنني مصاب بحالة هوس ما تجعلني كائنات جنسية، ثم كان يتساعل هل هذا يعود إلى عيوب في أسلوب التربية والتنشئة الأولى، أم أن حادثاً ما وقع لي في الصغر فجعلني مصاباً بأزمة لا أدري حقيقتها، ولكن عقلي الباطن يلح عليّ دائماً في اتجاه الجنس.

تقول متسائلة:

- أأعرفه هذا الصديق؟

ساخراً:

- وهل لي غير البعلي من صديق آخر؟

أفبق من رحلتي الماضية لسبر أغوار الماضي السحيق، كانت المياه قد ازدادت برودتها حتى ظننت جسدي قد تيبس متجمداً، أخرج من حمامي وقد بدأت أشعر بشيء من الانتعاش، تلك الخلاسية ذات الكفين المكتنزتين تعرف جيداً علاج أية حالة تتنابني، أتأمل علاقتي معها، أنا مرتبط بها فعلاً من أجل الجنس فقط أم إعجاباً بثقافتها التي لم أكن أنتظرها من فتاة مثلاً؟ أعرف أن عزلتي الطويلة التي دخلتها منذ زمن ليس بالقصير قد أعجزتني عن التواصل الاجتماعي مع الآخرين، ولكنها ذات رونق مختلف، كنت أظنها مجرد مترجمة لا تفقه الكثير من الأمور الثقافية الأخرى، فوجئت بمستوي أعمالها الإبداعية التي تكتبها على فترات متباعدة، كانت تمتلك أسلوباً ساحراً في الكتابة يأخذك بعيداً إلى عوالمها الخاصة، اندهشت لثقافتها السينمائية التي حاولت أن تسترها عني منذ لقائنا الأول، يومها فسرت ذلك بالخبث الثقافي الحاد، حينما بدأت أحكي لها حكاية الظلم النقدي الذي قوبل به فيلم "الدرجة الثالثة" اندهشت كثيراً حين قالت:

- العيب ليس في شريف عرفة كمخرج وماهر عواد كسيناريست؛ فهما يتميزان بالذكاء الفني، ولكن العيب

الأساسي يقع على عاتق النقاد الذين لم يرغبوا في فهم مغزى الفيلم، أو قل أنهم تغابوا عن محاولة فهمه.
أقول مندهشاً:

- معنى كلامك هذا أن كلام شريف عرفة بأن النقاد كانوا يحملون قدراً لا بأس به من الغل تجاهه كان صحيحاً مما يخرجهم من دائرة الإصابة بعقدة الاضطهاد.

- يبدو أنك أنت المصاب بالعديد من العقد النفسية الخطيرة.. أية عقدة هذه المصاب بها شريف عرفة؟ أظن أنه لو كان كذلك لما استطاع الاستمرار والمثابرة الطويلة بعد هذا الفيلم.
أتأملها مندهشاً لأقول:

- لكن لم طلبت مني رواية تلك الحكاية لك يوم تعارفنا رغم معرفتك الواعية بها؟ أكنت تحاولين السخرية مني، أم أنك تمارسين نوعاً من الخبث على؟

تنطلق ضحكاتها المججلة الصافية ذات الانسحاب البطيء الأخاذ في نهايته. تقول بخجل نادر:

- أتذكر تلك السيارة التي كادت أن تصدمنا على ناصية شارع عدلي؟

- بلى..

- يومها أطلق أحد الشباب داخلها سباً ثم قال ليس هذا وقت الحب.. أعتقد أن الفراش سيكون أفضل.

- أذكر ذلك.. لقد تخوفت وقتها أن يكون قد أزعجك بقوله.

- لقد شعرت بالانزعاج فعلاً، ولكن انجذابي إليك ليلاتها كان يشعل في جسدي رغبة عجيبة مستعرة تدفعني إليك، أذكر أن

نظراتك منذ وقعت على عينيك كانت تتأملني بهدوء وكأنها
نظرات متصوف يتأمل إبداع خالقه.
تصمت فترة ثم تقول مستدركة:

- أأدري؟ لولا تلك النظرة المتصوفة الخاصة التي كانت تلوح
في عينيك لنفرت منك منذ اللحظة الأولى، إلا إنها كانت
السبب الأساسي في انجذابي نحوك.
- لست أفهمك.

- سأقول لك يا طفلي العزيز.. إن الأنثى منا تشعر بأنواع
النظرات الموجهة إليها، فتلك شبة، وهذه جارحة تريد أن
تنهش الجسد، وأخرى متألمة متعبدة ذات إحساس صوفي
بالجمال، ولعل الأخيرة هي أكثر النظرات نفاذاً إلى قلب
المرأة منا، ليس إرضاء لغرورها، ولكن لأنها من أكثر
النظرات ندرة.

- أيتها الماكرة، إذن كنت تستدرجينني حتى نصل إلى منزلي.
تقول وقد اكتسبت عيناها نوعاً غامضاً من الألق:
- لا تلق الأحكام جزافاً، فأنت أيضاً كنت تلعب ذات اللعبة، إلا
أني شعرت ليلتها بانجذاب عجيب نحوك لست أدري
مصدره، فساعدتك على إتمام ما تبغيه.

أنتبه على صوت باب الشقة يغلق، أتجه بعينيّ الشاردتين
نحوه فأرى في تلك الخلاسية الفاتنة، يا لبهائها، تسرع نحو
فأريح رأسي الرازح بالأفكار على صدرها، راحة عميقة
تشملي حينما أنسى الجو المحيط تماماً بينما رأسي تتوسد نهديها
بعالمها الأثير المنفصل عن الواقع، تقول مهددة إياي بينما

أصابعها المدببة ذات الانسحاب الأخاذ تعبت بفروة رأسي
وكأنني وليدها الصغير:

- ماذا هناك؟ أزعجتني.

أقول وقد انتبهت لابتلال ملابسها:

- انك مبتلة، أهى تمطر؟

- بلى..

أنزعج قائلاً:

- ستصابين بالبرد هكذا... غيري ملابسك أولاً.

تقول مطمئنة:

- كأسان من النبيذ يجعلاني أشعل حرارة.

أراها وقد تناولت كأسها لتجرعه جرعة واحدة بينما يدها
تنضو عنها ملابسها الشديدة الضيق التي تخنق جسدها الراغب
أبداً في الانطلاق الحر، أراها في عريها البرونزي لوحة مكتملة
يعجز البشر أجمعين في تشكيلها، تلحظ نظراتي المتعبدة في
جسدها فتقول بغنج مثير:

- يا لتلك النظرات الأسرة... please لا تنتظر لي هكذا.

تتناول المنشفة مجففة جسدها لتلتف بها عاقصة شعرها
للخلف. تقول بعد أن استراحت جوارى بينما يدها المكتنزة ذات
الأظافر الوردية تمسك بكأسها:

- ماذا هناك؟

أقول شارداً:

- هل تذكرين "ماريا كلارا"؟

- أتقصد تلك المرأة زوجة المعلم "مانويل" التي تحدث عنها جورج أمادو في رواية بحر ميت؟
- هذا تماماً ما أقصده.

- بلى.. ولكن ما الذي ذكرك بها الآن؟
- أتذكرين حينما كانت "ليفيا" زوجة "جوما" ذلك الشبيه بأحد أبطال الملاحم الإغريقية تنتظر عودته من البحر وسط العاصفة، وقد أخذ بها الوهم أن زوجها لن يعود مرة أخرى، بينما صوت "ماريا كلارا" ذو التأوهات الجنسية الحادة يصل إلى مسامع ليفيا محمولاً مع الريح كي يملأ الميناء بأكمله بسحر ذلك الحب المقاوم للموت، الذي يظهر وجهه القبيح مع تلك العاصفة الهوجاء التي هبت؟

تقول ضائقة:

- كل ذلك أذكره، ولكن الذي أدركه الآن أنك تهذي.
أضحك قائلاً:

- لست أهذي عزيزتي، انه ذات الصوت المتأوه ذو الشبق الجنسي المستمتع بممارسة الحب لماريا كلارا هو الذي أيقظني من غفوتي الليلية، ولكن بشكل أكثر حدة وشهوة.
منزعجة:

- أنت تهذي بالفعل أم أنك كنت تحلم؟
- لا هذا ولا ذاك، يبدو أنها إحدى الزوجات، أو إحدى تلك العاهرات التي أتى بها أحد جيراني.. لقد كان صوتها واضحاً جلياً وكأنها معي في الغرفة تماماً، كان صوت تأوهات المثيرة ذات اللحن الجنسي الجميل يشنف أذنيّ بادئاً

ضعيفاً واهناً، ثم لا يلبث أن يصير حاداً صارخاً.. سمعتها
تقول لرجلها قبل الصرخة الأخيرة ذات الرحلة الجميلة
الأبدية كفاك مضاجعة، لقد أذهلتني.

تقول ليذا مندهشة:

- أذهلها؟ ولكن كيف أذهلها؟

- لست أدري، لقد تحيرت فيما قالته كثيراً، حتى إنني أمضيت
الكثير من الوقت لتفسير قولها.

أقول موجهاً لها حديثي:

- أويكون الرجل قد ضاجعها فترة لم تعهد لها منه من قبل؟

- دعك منهما، لكل منا عالم يغنيه، ولكن أهاتفنتي من أجل ذلك
أيها الشره برغباتك؟

- بغض النظر عن الرغبة التي انتابنتي وقتها إلا إنني شعرت
بحاجة ماسة إليك كي أتخلص من ذلك الشعور الشديد
بالخواء الذي انتابني، مجرد وجودك المادي في الحدود
المادية للمكان يجعلني أتناسى العالم بمن فيه.

تبتسم ضامة إياي إلى جسدها، تقول هامسة:

- أين كنت البارحة؟

- متى؟

- مساء، هاتفنتك كثيراً ولم أجذك.

أقول بلا مبالاة:

- كنت أتسكع.

- كانت هناك إحدى الندوات الثقافية التي هي في حاجة إليك،
كنت أتمنى حضورك معي.

أقول ضجراً:

- لقد هجرت هذه التفاهات منذ زمن بعيد، هؤلاء الذين يحرصون عليها ليسوا متقنين كما قد يتراءى لك، إنهم مجرد قشور ثقافية يرغبون في الظهور على السطح الآسن لتقافتنا الراكدة الضحلة.

غاضبة:

- لا تلق أحكامك جزافاً هكذا.

بهدوء:

- إنها ليست أحكاماً جزافية عزيزتي، ولكنها الحقيقة المرة، جميع هؤلاء يعلمون جيداً أن ثقافتنا العربية مجرد ظاهرة نفسية نحاول بها تعويض ما يشوب نفوسنا المريضة المتضائلة أمام الزحف العولمي الجديد.

لم ترد عليّ، فلم أنتظر منها إجابة قائلاً:

- انظري إليهم ستجدينهم يحلو لهم لو ك الكلمات المنتقاة ثم يتشاجرون متهمين بعضهم بما يدور في دواخلهم من اتهامات العمالة وبيع القضية وما إلى ذلك من ترهات، وأن هذا له باع وتاريخ في كذا وكذا، وأنه فعل كذا وكذا، وكم ناضل، وكم فعل، ثم تكون المحصلة النهائية لمثل هذه اللقاءات ذهاب كل واحد منهم إلى امرأته ليتدثر في أحضانها الدافئة الواهية، وإذا لم تكن له زوجة سيتجه إلى ابتلاع كذبه وتدليسه الزائف الذي قام به منذ ساعات بأحد أفلام البورنو التي يعشقها مجتمعنا العربي، الذي يوشك على الانفجار، ثم ينام قرير العين بعد أن يمارس عادته السرية اللعينة التي يهرق فيها ماءه على الأرض هباء، أية ثقافة تلك؟

تقول وقد أزعجها حديثي:

- وإذا لم يكن قد حدث شيء من هذا أيها المريض المتعالى؟ لقد ألقى علينا الدكتور حامد طاهر إحدى قصائده الجميلة تلك المسماة "أخيراً تحدثت الأحجار"، وما أن فعل حتى انهال سيل جارف من القصائد الرائية للقضية الفلسطينية. أقول ساخراً:

- وتعتنيني أنا بالمرض والتعالى؟ يبدو أن الجميع من حولنا قد صاروا بالفعل مرضى.. أية قضية تلك التي توهمون أنفسكم بها؟ إن القضية الحقيقية أنه لم تعد هناك قضية أصلاً، لست أدري إلى متى سنظل نقوم بتلك الحالة الكئيبة من التباكي والشجب والرفض والإدانة وما إلى ذلك من تلك الكلمات المفرغة الحمقاء.

أصمت لأشرد بعيداً، وقد تذكرت البعلبي، كان قد اشترك مع العديد من الزملاء للإعداد في مظاهرة سلمية بعد الاعتداءات الوحشية التي يمارسها العدو الصهيوني تجاه الفلسطينيين، يومها كنا في حرم الجامعة صباحاً، رأيته قادماً نحوي حاملاً إحدى اللافتات التي تطالب بطرد السفير الإسرائيلي وغلق السفارة الإسرائيلية. يقول:

- ألن تأتي معنا؟

- أين؟

- سنقوم بمظاهرتنا السلمية حتى كوبري الجامعة، وهناك أمام السفارة الإسرائيلية سنقوم بحرق العلم الإسرائيلي.

أقول ساخراً:

- وهل تعتقد أن حرس الجامعة سيسمحون لكم باجتياز بواباتها إلى الخارج؟

حانقاً:

- لا بد أن نفعل، حتى ولو وصل الأمر للاعتداء عليهم كي يسمحوا لنا بالخروج.

يائساً:

- أتحدث مجنوناً لا يفقه معنى كلامك؟ قوات الأمن المركزي منذ الصباح تحيطنا وقد حولت الجيزة بأكملها إلى ثكنة عسكرية بعساكرها وعرباتها المصفحة، بل منعت مرور أية سيارة من المنطقة، وما أن تبدأوا إلا وستجدون وابلًا من القنابل المسيلة للدموع والطلقات المطاطية تنهال عليكم، هذا إذا لم يستخدموا الطلقات الحية لإبادتكم تماماً كما يفعل الصهاينة بالفلسطينيين.

أراه وقد انتفض صارخاً:

- أنت جبان خائن للقضية.

غاضباً:

- لا تتهمني بالجبن والخيانة، أنظر حولك بشيء من التأمل وستجد أن ما نفعله جميعاً لا طائل من ورائه على الإطلاق، حتى ولو قامت المظاهرات في جميع بلدان العالم فلن يغير ذلك من الأمر شيئاً، إسرائيل تساندها أمريكا، والحكومات العربية إما صديقة أو ذليلة لأمريكا، فماذا سنفعل جميعاً؟ نظل نصرخ لنقول لهم إننا ما زلنا أحياء؟ هم يعرفون ذلك.

- معني كلامك هذا أنك لن تأتي؟
- صدقني، أنا أقدر فيكم ما تفعلونه وأحترمه كثيراً، بل وأتمنى أن أشارككم فيه، ولكني واثق تماماً أنه لا فائدة مما يحدث.
- أفيق من ذكرياتي القاتمة على كلام ليينا قائلة:
- إنك تتحدث وكأنك لست منا.
- أقول زافراً:

- للأسف الشديد أنا أنتمي إلى مثل هذه المنطقة المريضة المتشرذمة على ذاتها طائفة في نفسها القوة والمجد رغم أنها لا تعدو أكثر من مجرد هباء تذروه الريح كيفما اتفق، ولكن الفرق بيني وبين الآخرين أنني قد ارتفعت كثيراً من داخل تلك الدائرة المفرغة، فاستطعت أن أرى الدائرة المغلقة بشكل أكثر رؤية ووضوحاً.

- أتتهمنا بالجهل؟
- لست أتهمكم بالجهل بالرغم من تأصله فيكم، ولكني أتهمكم بالسبات العميق في مجموعة من الأوهام صنعتوها بخيالكم، ثم لم يلبث ذلك الخيال المريض أن صورها لكم على أنها حقيقة واقعة، فانسقتم خلف خيالاتكم.. أتدريين أن عدداً لا بأس به من الفلسطينيين يرددون دائماً قولهم "ربنا يديم علينا الاحتلال؟" إنهم مجموعة من المرتزقة قد يشردون جوعاً إذا تركتهم إسرائيل في حالهم، وإلا فمن أين ستنهمر عليهم الملايين من الدولارات التي تأتي لهم على سبيل المساعدات من جميع دول العالم كشعب مقهور إذا تركته إسرائيل؟ دعك من هذا، أنظري إلى رئيس السلطة الفلسطينية الذي يخرج

علينا ساعة بعد أخرى بكل صفاقة ليتهم جماعات فتح
وحماس وحزب الله الذين يدافعون ويستشهدون من أجل ما
يظنونه حقاً من حقوقهم، وهذه قناعاتهم الخاصة التي قد أقتنع
بها أو لا أقتنع، ويقول إنهم إرهابيون، وإن ما يقومون به
إرهابية محضة.. هل بعد هذا تناقض؟ بالله عليك حينما
تستمعين إلى مثل هذا القول يصدر من رئيس السلطة
الفلسطينية، ألن تتساءلي بعمق عن هويته حتى ولو كان يفعل
ذلك مخادعة ومداهنة؟ هل هو فلسطيني مجاهد من أجل حقه
المشروع أم مجرد ببغاء من ببغاوات الزعماء العرب الذين
يرددون ما يقوله شارون وبوش وغيرهم من ذوي القوة
العمياء؟

تقول شاردة:

- يبدو أنك متأزم كثيراً.

بغضب:

- لست متأزماً، ولكنني أكاد أنفجر غيظاً.

- إذا كان الأمر كما تصوره أنت فماذا نقول عن إلهام دسوقي
وغيرها من المناضلات اللواتي فجرن أنفسهن في وجه العدو
الصهيوني؟

- أنا لا أنكر وجود من يؤمنون بقضيتهم العادلة في وجه هذا
الصلف الذي يواجهون به إلا إذا كنت مغالطاً أحمقاً، إذا
تفوهت بذلك، ولكنهم قلة، أفاقوا من سباتهم العميق بعد أن
باعوا أراضيهم وممتلكاتهم للآخرين ثم يجيئون بعد ذلك كي
يطالبوا الآخر بها على الرغم من أن العقل الواعي يقول إنهم

لا بد أن يحيوا جنباً إلى جنب، بأي شكل من الأشكال، سواء في اتحاد فيدرالي أو كونفدرالي، أو ما إلى ذلك من أشكال الحياة التي يرتضونها لبعض، إلا أن الفلسطينيين يصرون علي أراضي 1948 وهذا ما لا يمكن أن يحدث أو توافق عليه إسرائيل ومعها جميع دول العالم، لأن معنى ذلك خروج اليهود جميعاً من فلسطين وفي هذا خطر علي أمريكا وغيرها من دول أوروبا.. صدقيني، أنا أكثر الناس تعاطفاً مع الفلسطينيين، ربما أكثر منك، ولكني لا أنساق خلف عواطفى الملتهبة، بل أحاول التفكير أولاً.

- إنك تحيرني بحديثك هذا.. لست أدري كيف يصدر من أحد المثقفين.

بضجر:

- إن هؤلاء المثقفين المتشاعرين وغيرهم هم السبب فيما نحن فيه من أمراض نفسية مستعصية، هؤلاء الذين تم أدلجتهم بالفكر الناصري ذي المد القومي الواهم هم الذين انغلقوا على ذواتهم المريضة الفارغة ذات الأوهام الضاربة في عمق الخمسينيات، حتى إنهم لم يستطيعوا الخروج من أوهامهم حينما أرادوا فعل ذلك.

أصمت برهة لأقول:

- أتذكرين منذ عام تقريباً، حينما حدث ما يسمونه بالانتفاضة الفلسطينية الثانية؟ كان العالم كله يصحو وينام في سباته العميق على صور المجازر التي يقوم بها العدو الصهيوني، كنت وقتها أجلس أمام وسائل الإعلام العربية العقيمة لأرى

مثل هذه الصور التي تترى علينا بأخبارها الحالكة، ثم لا يلبث هؤلاء الحمقى أن يفصلوا هذه الأخبار بفواصل من الأغاني البلهاء التي يسمونها وطنية من أمثال يا حبيبتي يا مصر، والحلم العربي وما إلى ذلك من الأغاني التافهة، التي تثير داخلنا الحق وفقد الانتماء بدلاً من تنميته. تقول متحديّة:

- وماذا تريد منا أن نفعل أيها المارق؟ إذا لم يكن هذا يروقك فما هو الحل عندك أنت؟
أقول مندهشاً:

- أنا ليس عندي أي نوع من الحلول؛ كل ما هنالك إنني أحد هؤلاء الأشخاص الذين يتأملون الواقع المحيط بهم بكل ما فيه من هوان، وسياسات متخبطة حمقاء وعفنة، ثم يقول رأيهِ الخاص المبني على نظرة ثقافية ما، والتي لا أفرضها على الآخرين، وإن كنت أحتفظ بها لنفسِي، ولكن خلاصة الأمر إنه إذا كنا نريد كأمة عربية أن نفعل شيئاً ما، من البديهي أن الفعل أقوى كثيراً من القول، وهذا هو المنطقي الذي لا ننتظر الآخر كي يقوله لنا، إلا إن كل ما نفعله الآن مجرد الكلام.

خيم علينا الصمت بطنينه الذي أشعره يضغط على طبائتي أذني حتى يكاد أن يمزقهما، يا لئلك اللعينة، أية ساعة منحوسة تلك التي جعلتها تفتح المستنقع الراكد الذي كان مغلقاً داخلي؟ كنت قد أغلقت ذلك الجرح القديم الغير قابل للالتئام منذ زمن

بعيد، أشعر بالسعادة كلما نكأت جراحي الدامية؟ أم أن هوايتها القديمة في نبش الماضي تسيطر عليها في كل أوقاتها؟ يا لها من ساعة تلك التي هاتفتها فيها، ملعونة هي وملعونة تلك المتأودة العاهرة التي أشعلت في الرغبة فجعلتني أهاتفها، بل اللعنة علينا جميعاً كأمة واهية ترزح تحت أوهام يصورها لها عقلها المريض، أتأمل كتفيها العاريين في منشفتها الملفوفة على جسدها ذي الأبعاد المترامية فينتابني شعور غريب نحوها بالرفض لذلك الجسد الأسر الذي أعشقه كثيراً، وأحفظ تضاريسه بمرتفعاته ووهداته عن ظهر قلب، أرى فيها الآن وجه الشيطان وجميع زبانية الجحيم، لم يعد وجه الله يتشكل في قسماتها كما كان يهياً لي، أ جاءت لمؤانستي في غربتي القاسية ذات الخواء اللامتناهي أم جاءت لتزيدني غربة على غربة فأكاد أن أكره ذاتي وأكرهها هي والآخرين؟ أتساءل كيف يتحول الإنسان هكذا بين لحظة وأخرى إلى شيطان جحيمي كربه لا نكاد نتحمله، فلنذهب الثقافة والوطنية وكل هذه الهراءات إلى الجحيم إذا كانت داعياً لمثل هذه الحالة التي تنتابني كلما تأملت حالهم، كانت دائماً ما تهتاج عليّ معدتي في مثل هذه الأوقات فأشعر بلهيب قاس يكاد أن يحرق معدتي ليتصاعد إلى مريئي الملتهب، بدأت الحالة تتزايد فألقيت بكأسي المنسكب أرضاً، أتأمله وقد تحول إلى فتات من زجاج كان ذو تشكيل بديع منذ برهة، تنزعج لتعندل في جلستها المتكئة ذات الانسياب الأنثوي المدلل الذي يكاد يشعر جميع مخلوقات الأرض بالرغبة القاسية فيها.

تقول منز عجة:

- حبيبي.. ماذا هناك؟ أتشعر بشيء؟

لم أكن أستطيع الرد عليها، مغص قارص كان قد بدأ يتصاعد ألمه يتركز في معدتي تماماً، حتى لكأنني أشعر به ذي رجع شديد في ظهري عند المنطقة المواجهة له تماماً، فورانات هائلة من البراكين اللاهبة تموج مرتفعة من خلال مريئي الملتهب حتى إنني أشعرها غاصة في حلقي تكاد أن تخنقني التهاباً، وجهي الذي اكتسي بالحمرة القانية أزعجها كثيراً فجعلها تصرخ دامعة، أراها تدور حول نفسها ثم تعود كي تدور حولي غير مدركة فيما يجب عليها أن تفعل، حركتها العصبية حولي كانت تزيدني عصبية، كدت أصرخ فيها أكثر من مرة أن تكف عن حركتها الدائبة، إلا إنني كلما حاولت النطق كان الفوران ذو اللهب الأحمق يتصاعد إلى حلقي ليغص إياه، تتسدل منشفتها التي تلتف بها حول جسدها فأراه متألقاً مشعشعاً في عتمة زماني الآني، لجسدها جاذبية خاصة تكاد أن تضارع جاذبية نساء الأرض جميعاً، حتى أنه يجعلك ملتصقاً به في جميع حالاتك، أشعر بأنفاسي تلهث متلاحقة ثم لا تلبث أن تتقطع متباعدة، فكنت أشهق على فترات متباعدة شديدة الصعوبة، عندما بدأ وجهي ذو اللون الأحمر الكابي تبدو فيه بعض النقاط البيضاء ربما لنقص الأكسجين الداخل إلى رئتي كانت قد وصلت إلى أقصى درجات يأسها، بينما دموعها المنهمرة على صدري تكاد أن تكون كالسيل الجارف، أنظر لجمال جسدها العاري بينما لسان حالي يتسائل، لماذا تبكي تلك الحمقاء هكذا وكأنني قد

مت؟ إن لبكائها ارتعاشة قوية تهز أرجاء الجسد الواهي في عريه المقدس، ما كدت أتحامل على ساقِي الواهيتين إلا وانزلق من فمي كالسيل سائل شديد الصفرة له رائحة ننتة تكاد أن تقرب من رائحة النشادر، تنطلق الرائحة الخمرية في الهواء المحيط فأشمها لاذعة حارقة، كانت الدفعات المتتالية التي أقيئها تكاد أن تخنقني بينما جسدي يحاول أن يطردها بقسوة منتفضاً تلك الانتفاضة الشبيهة بالانتفاضة الأخيرة للجسد، التي ينتقل بعدها إلى أبعاد أخرى لا مرئية، ما أن انتهيت إلا وبدأ صدري يعلو متهابطاً في سيمتريّة منتظمة، بدأ الألم يزول بطيئاً بينما حالة صفاء ذهني ونفسي غريبة قد شملتني، أراها تجلس جوارى بجسدها المتألق في عريه وقد هدأت أنفاسها وكأنها كانت تعاني منذ برهة مما كنت أعانيه تماماً، إلا أن دموعها المنسربة من حدقتيها الواسعتين ذاتا التناقض اللوني الوحشي قد ازدادت تألّقاً وفتنة. تقول محاولة اصطناع الضحك العصبي:

- أيها الأبله، لقد ظننتك تلفظ أنفاسك الأخيرة فكنت أموت معك أنا الأخرى، ماذا بك؟ أتعاودك هذه الحالة كثيراً؟

لم أعر سؤالها اهتماماً، كانت عيناى تجولان في أرجاء جسدها المترامية ذات السحر العجيب بينما تعتمل في داخلي رغبة سادية قاسية في جرحها أو نكأ ماضيها مثلما كانت تفعل معي منذ برهات، أبدأ في نبش الماضي بأظفري في قسوة حينما أقول لها هادئاً:

- دعك من حالتي تلك.. أتذكرين ذلك الفتى الذي كان يجلس معنا في لقائنا الأول حينما التقيتُك مع البعلي؟

لم يكن ذكاؤها هيناً، رأيتهَا تعتدل في جلستها وكأنها تستعد
لصد شر ما بدأ يحيطها، يبدو أن فطنة المرأة قد جعلتها تدرك
إنني أتربص بها شراً. تقول متوجسة:

- ماذا به؟

- لقد رأيته بالأمس في ميدان الألفي.

- ماذا في ذلك؟

ثم تستطرد ضائقة باللعبة الغبية التي أنا على وشك البدء
فيها:

- ألق ما في معيئك كيفما اتفق ولا داعي لما تفعله من لف
ودوران، لا أظن أن هناك داعياً لذلك.

يا لذكائها، يبدو أنها تحاول أن تصد متفادية ما أشرع في
فعله، أقول بعد فترة صمت وكأنني لا أعرف كيف أرحها:

- أكنت على علاقة به؟

متنمرة:

- أية علاقة تقصد؟ أهي علاقة من تلك التي يصورها لك

خيالك المريض؟

- أجل.. علاقة جنسية ما.

تنظر إليّ مغتظة، عيناها اللتان أعشقهما كادت أن تدفعاني
للتراجع عما أنا مقدم عليه، ولكن غيظي الشديد من الحالة التي
أوصلتني لها منذ دقائق كان يدفعني للاسترسال فيما أفعله، تقول
وقد بدأت سحابات من الدموع المكظومة تبدو في حدقتها:

- أنت سافل، لأنني أحببتك ووهبتك ذاتي بكل ما فيها تحاول

إهانتي؟

أشرد بعيداً في عوالمي الخاصة العميقة حيث تلك الفتاة ذات الوجه الصبوح التي كانت على علاقة مع البعلي، كان جالساً وحده في أبهائه الخاصة، كنت كثيراً ما أقطع عليه خلوته مشاكساً:

- ماذا بك أيها الهمام؟ أراك تجلس وحدك، أهجرتك حبيبتك ذات القفازين النورانيين؟

كنت أحب مداعبته بذلك لأنها ترتدي قفازين دائماً نتيجة حساسية من ضوء الشمس. يقول زافراً:
- بل أنا الذي هجرتها.

يخيم علينا الصمت الطويل حتى لكأن قروناً طويلة قد مرت علينا قبل أن أقول له:

- لماذا؟ إنها متيمة فيك حباً، أجننت؟
- لم أجن أيها الغبي، كل ما هنالك أنها لا تتاسبني.
غاضباً:

- منذ متى وهي لا تتاسبك؟ أعلم جيداً أن علاقتكما حميمة.
بهدوء كالثلج:

- ولهذا تركتها.

- ماذا؟

- لا تتدهش هكذا.. لقد أعطتني كل شيء، روحها وجسدها لأنهل منهما.. بالتأكيد إنها على استعداد تام لاعطائهما لغيري مثلما فعلت معي، لا أظن أن مثلها تصلح رفيقة.

يقولها وكأنه يقرر حقيقة واقعة، ياله من سافل، كيف يفكر ذلك المجنون؟ أمن الممكن أن يكون كالآخرين في أسلوب

حياتهم وتفكيرهم الغبي؟ لكني لم أعهد منه ذلك، كان يرفض المجتمع بكل ما فيه من تفكير غبي وعادات قبيحة، أتكون ردة غريبة قد أصابته بالجنون؟ أقول غاضباً:

- انك تتحدث تماماً كما يتحدث هؤلاء الأغبياء الذين يحيطوننا.
- ليسوا أغبياء، هم أكثر تعقلاً منا.

- أيها المنافق، وأين كلامك عن جبال الإرث البغيضة التي نوارثها جيلاً بعد جيل في مجتمعاتنا العربية؟ هل ذهب كل ذلك أدراج الرياح؟ أم مجرد مجموعة من الشعارات الجوفاء التي تتشوق بها أنت وأمثالك لمجرد صنع هالة من الشموخ والتقدمية والتحضر؟

أراه التزم الصمت، وكأنه غير راغب في استمرار تلك المناقشة. يزداد غضبي فأقول له:
- يا لك من نذل.

لم أمثالك نفسي فبصقت على وجهه تاركاً إياه بينما كلماته تتهدى مع الريح في أذني:
- أنت تعيش في يوتوبيا خاصة بك.

تتشع دوامات الذاكرة التي أسبح فيها على صوت نهضات لينا ذات الألق النوراني، أحاول إصلاح ما كسرتّه منذ برهات فأقول مندفعاً صادقاً في قلبي:

- لم أقصد هذا الوصف الذي وصفتي نفسك به، ولكني أرغب معرفة كنه العلاقة بينكما.

- منذ متي تحاول معرفة ما يخص الماضي؟

أقول بهدوء بينما أنا على يقين تام بأن كلامي المستفز
سيجعلها تواصل ما بدأته لتؤي:

- إذا لم تكن بك رغبة في الحديث في هذا الأمر فأنت حرة، أنا
أحترم حياتك الخاصة وأعرف أنها ملكك وحدك.
- لقد بدأت لعبتك الحقيرة وأنت تعرف جيداً أنني لن أدعها تمر.
كنت منصتاً لها فلم أردّ عليها منتظراً استرسالها في
حديثها:

- ذلك الفتى من هؤلاء المأفونين الذين تكثر الحديث عنهم في
كلامك، فهو لم يكذب يوماً واحداً في حياته إلا وظن نفسه
من هؤلاء المتقنين المساكين الذين يتباهون ليل نهار بما
قرأوه.

كان حديثها عن ذلك الفتى يذكرني بذلك المتشاعر الذي
تراه أمامك فجأة كنبت شيطاني في جميع مقاهي وسط البلد،
متخذاً مكانه بين الكتاب والمتقنين سواء في الأتيليه الكائن في
ذلك الشارع الصغير المسدود المسمى بشارع كريم الدولة، الذي
تم تلويثه بأمثاله من المتقنين، أو في الجريون وغيره من تلك
الأماكن التي يرتادها أمثالنا، أذكر الآن أن رغبتني السادية
القاسية التي انتابنتني حينما أردت إهانته عند لقائي به في زهرة
البستان هي ذات الرغبة التي تملكنتني منذ دقائق لفعل ذلك مع
لينا. بدأت أشعر بفدح ما أقدمت عليه فأردت التراجع. ولكن
كيف يتأتى لي ذلك بينما قد نكأت جراحها بحماقتي المندفعة؟
أنتبه على صوتها تقول مسترسلة بينما عضلات وجهها قد

تبيست وكأنها تمثال إغريقي قديم قد تم نحتَه هكذا منذ الأزمان
الغابرة:

- كنت أرى في نظراته الدائمة لي ولها عجبيا لم أعده من قبل
في غيره من الآخرين. لم تكن نظراته جارحة على الإطلاق
ولكنها كانت أشبه بذلك الكلب الذي يتبع صاحبه ذليلا أينما
اتجه حتى ولو وجه إليه ذلك الصاحب أية إهانة قاسية فإنه
يتقبلها مباشرة عن طيب خاطر...، كنت أندesh كثيرا لذلك
الفتى التابع لي ذليلا في نظراته الولهة كظلي إلا أن تلك
النظرات كانت تشعني كثيرا بالانتشاء وأني ملكة متوجة
على عروش الآخرين، لا تحاول تحليل شخصيتي لتقول أنني
مغرورة بجمالي فلست كذلك على الرغم من وجود المبرر
لهذا الغرور، إلا أنني أنثي يحق لها في بعض الأوقات أن
تتيه بجمالها الذي يعشقه الآخرون.

تسترسل وكأنها تدفع تهمة عن ذاتها:

- صحيح أنا أمقت كثيراً أن يتعامل معي الآخرون على أنني
مجرد أنثي جميلة دون النظر إلى ككائن ذي كيان وفكر
وتقافة، ولكنني في بعض الأحيان أمقت تلك الثقافة الجافة
ودهاليزها المجدبة لأكون في حاجة ولو لبرهة كي أشعر
بنفسي كأنثي راغبة ومرغوبة من الآخر.

أقول بصوت هادئ بينما نبرات صوتي تدل على الندم الذي
اجتاحني:

- ليينا، أنا آسف.. لم أقصد إيذاءك بهذا الشكل المهين.

تقوم وقد بدا في حركتها الكثير من العصبية لتبحث عن علبة سجائرهما المارلبورو، تتناول إحدى لفائفها مشعلة إياها بينما يدها تلقي العلبة في وجهي حانقة، أسمعها تترسل وكأنها لم تسمع ما قلته، بينما تفر دخان سيجارتها بقوة فيتهدل نهذاها اللذان كانا دائماً يأبيان إلا الشموخ النافر في محيط الزمن الكئيب:

- لم أتخذه صديقاً لي، فهو ليس بالصديق الذي تشعر بالرغبة في الجلوس معه؛ فهو كان يثير ضيقي بتفاهته اللامتناهية، إلا أن تلك النظرات الذليلة المأمورة بجمالي جعلتني أتخذه تابعاً في الكثير من الأحيان حتى أنه كان مادة للتندر وإزجاء الوقت الممل الذي نشعره جميعاً بلا استثناء من ذواتنا.. أوتظن نفسك أيها التفاهة الوحيد الذي ينظر حوله ليرى ويحلل بكل وضوح ما يدور حوله من هراءات وهذات مفتعلة فيشعر بالقرف من ذاته؟ جميعنا يشعر بذلك إلا أننا نحاول جاهدين التكيف مع تلك المتغيرات العجيبة التي تحدث لنا مفلسفين إياها تبعا لقناعاتنا الخاصة، هاربين في ذلك من العزلة التي لا بد أنها قد تقتلنا أو تصيبنا بهلاوس سمعية وبصرية إذا لم نستطع التواصل مع الآخرين، فنحاول السخرية مما يدور حولنا، أو حتى نسخر من أنفسنا، على العكس منك تماماً، تبدو بالفعل مريضاً كما سبق أن اتهمك البعلي من قبل، فأنا على يقين من أن نظرتك كانت صائبة حينما قال لك ذلك بقسوة المحب لإخراجك من عزلتك التي

انتهجتها متخذاً منها سلاحاً في وجه الجميع لصددهم بعيداً
عنك.

تصمت متأملة إياي، وقد عاد إليها هدوؤها بعد أن أفرغت
شحنتها الغاضبة التي كنت سبباً فيها، تقول بعد عدة قرون من
الصمت الذي هبط بيننا كالحاجز:

- أنت بالفعل أحد المرضى إذا لم تخرج مما أنت فيه.

كان جسدها قد استعاد ألقه الخاص، يمرق سهم الدهشة في
عقلي مما حدث، أيشارك الجسد الإنسان في حزنه فيتهدل،
وكأنما أصابه الهرم بينما يتباهى بذاته شامخاً في حالات الزهو
والفرح؟ لم أتأمل في الأمر كثيراً، كنت خجلاً مما أقدمت على
فعله فأردت إنهاء حاجز الصمت الكئيب الذي هبط بيننا، لم أدر
كيف أفعل ذلك بعد هذا الجرم الذي اقترفته في حقها، أمني
نفسي أن تصفح عما فعلته بها مقبلة نحوي بصفوها القديم، كان
وجهها الملائكي قد تبدل، يا لتلك المشاعر البغيضة التي تتشكل
تبعاً للحظة. أقول متردداً:

- لينا..

تهتف حازمة:

- لا تتطق باسمي أيها الوغد.

أراها تنهض غاضبة بجسدها البرونزي الباذخ في عطائه
لترتدي بلوزتها الضيقة الخانقة على اللا شيء، كانت قد اعتادت
على عدم ارتدائها لسوتيانها الضيق الآلم منذ أن قلت لها أنه
يجرح جمال نهديها، كان ملقى في أحد أركان منزلي لست

أدري أين، علّه في دولاب ملابسي الخاص، فمنذ خلعتّه أول مرة وأنا أحتفظ به وكأنه جزء من تكوينها الخاص الذي أحنو عليه مهتماً به، أعرف أنها رغبة فنيشية مريضة قد تتهمني بها ليّنا في يوم من الأيام، إلا أن كل ما يمتّ لها بصلة هو عندي جزء منها حتى ولو كان سوتيانها، أنهض مسرعاً محاولاً إعادة الصفو القديم إلى علاقتنا، كنت أهتم بها كثيراً وأرتاح لمجرد وجودها المادي إلى جوارِي. أسمعها تقول بحنو محايد:

- لا تنس أن تتظف منزلك من هذا القِيء.

ما أن قالتها حتى جذبتها إلى صدري الواهن بقوة قاسية، كنت أريد في تلك اللحظة امتزاج جسدينا علّهما يصبحان جسداً واحداً يجري في عروقهما ذات الدم الذي ينبض به قلبها الرقيق، تضعف مقاومتها لتستسلم لضغط جسدي الحاني لها، تريح رأسها الصغير ذا الشعر الأسود اللامع المعقوص إلى الخلف على عضدي ثم تجهش باكية، أشعرها تضربني في صدري بكلتا يديها قائلة بحب دافق:

- أيها الأحمق، لماذا عمدت إلى ذلك؟

أقول كاذباً محاولاً التهوين من الأمر:

- لم يكن الأمر عمداً، لقد كان سؤالي على سبيل المصادفة.

ترفع وجهي بكفيها المكتنزتين اللاتي أحبهما كثيراً بأصابعهما المسحوبة الأطراف على أظافرهما ذات اللون القرمزي الدموي. تنتظر في عيني مباشرة فتنهار مقاومتي حينما تقول:

- بل عمدت.

أقول خجلاً:

- أجل.. كان الموضوع عمداً.

متسائلة داهشة:

- لماذا؟ أتستمتع بجرحي؟

- لا تتركي ذهنك المريض يصور لك أوهاماً ثم تصدقينها.. كل

ما هنالك أنني شعرت بالغضب الشديد من جراء حديثنا عما

يدور حولنا من هوان وتخبط.

تقول باسمه:

- أيها المريض النفسي الذي أحبه كثيراً.

كانت تؤكد لي كثيراً على حبها بالرغم من أنني لم أبادلها

ذلك الحب قولاً مرة واحدة؛ فأنا لا أعرف بالفعل هل أنا أشعر

بالحب تجاهها أم لا، كل ما هنالك رغبة قصوى في وجودها

الدائم معي ربما لمشاركتي عزلتي العجيبة في بعض الأحيان،

وأحياناً أخرى كنت أحتاجها لإطفاء شوقي الملتهب إليها، كنت

متحيراً في شأني معها فلم أستطع البوح بما يعتمل داخلي من

شئ حتى لا أرح مشاعرها، أراها تنتظر في ساعتها لتقول:

- إنها الثامنة صباحاً، لا بد أن أنصرف الآن للذهاب إلى

عملي.

أقول جزعاً على فراقها:

- أأراكي اليوم؟

- بالتأكيد ستراني في كل أوقاتك، إنني كقرينك تماماً.

تقولها بينما ترتدي بنطالها الضيق الذي يحبس حركة

ردفيها المنسابين كالماء دون إفراط، أقول وقد اطمأننت إلى
صفائها المعهود فيها منذ الأزل:
- أراك الثامنة في اكسليور.

تقبلني بنهم وكأنها تأكل شفتيّ بتلك الطريقة التي عهدتها
فيها حيث تضغط شفتي السفلى بأسنانها وكأنها تكاد أن تدميها،
تتركني وقد أثارت كوامني المدفونة في منذ الأزل لتتناول
حقيبتها الصغيرة تاركة إياي لوحدي الموحشة.

توق

أخرج من جريدتي العتيقة التي أنشر فيها مقالاتي المترجمة، التي يرزح بها فكري بالعديد من الأفكار والمشاريع السينمائية المختلفة في حوالي العاشرة صباحاً، أذكر أنني ظللت فترة ليست بالقصيرة في منزلي بطوبقه المرتفعة ذات الطراز المعماري العتيق بعد أن غادرتني لينا وقد عاد إليها صفوها القديم الذي يجعل جسدها يبدو منطلقاً في جميع أرجاء المكان، كانت حادثتي الحمقاء التي أقدمت عليها معها قد زادتني قرباً مني إلا أن شعوري نحوها لم يكن قد انتضح بعد فلم أستطع تفسيره، أهو من ذلك النوع الصوفي النادر أم هو نوع من التوق الشديد لجسدها؟ لم أنتبه إلى الوقت إلا حينما دقت الساعة والنصف صباحاً، تلك الساعة العتيقة التي تعلو أحد جدران شقتي وكأنها إحدى التحف النادرة التي توقف بها الزمن آنياً عند فترة الأربعينيات فاندثرت مع الوقت إمكانية تذكر المناسبة التي جاءت فيها لتظل مكانها هكذا وكأنها جزء من تكوين المكان الذي ينقص سحره بانفتائها ويكتمل بوجودها، تذكرت وقتها أن هناك موعداً مع رئيس التحرير الذي وعدته بالأمس أن أسلمه مقالي الجديد عن فيلم "النوم في العسل" للمخرج شريف عرفة مؤجلاً في ذلك مقالي عن "أسرار البنات". أسرعت وقتها في ارتداء ملابسني على عجل بينما كنت أطمئن نفسي أنني لن أتأخر على مواعده؛ فالمسافة من معروف إلى شارع الصحافة لا

تتعدى الخمس دقائق سيراً على الأقدام، كنت قد غادرت مكتبه غاضباً بينما أشعر بنار حارقة تسري في عروقي بعد ذلك الخلاف الذي وقع بيننا للاختلاف في وجهات النظر فاستقلت المصعد في الطابق الثامن هابطاً غير شاعر بما يدور حولي، غير مطمئن إلى أية جهة سأسلك، أسمع أحدهم يحيني بينما خطواتي الغاضبة تتسع مبتعدة عن المبنى العتيق غير مبال بمن وجه إلى التحية، أشعر بعروقي تكاد تنفجر بدمائها الهائجة التي تصطبغ فيها غضباً، أسلك شارع الجلاء عرضياً لأعبر تلك الجزيرة الحديدية المنعزلة التي تقسم الشارع إلى اتجاهين، كانت منذ عدة سنوات طريقاً حديدياً للترام الذي قارب على الاندثار وتقديم أوراق اعتماده ليتم الإلقاء به في مخازن الدولة ذات السياسات المتخبطة الحمقاء التي لا تعرف كيف تحافظ على تراثها وجمال وجهها التاريخي العتيق، يبدو أن القبح قد تملك زمام نفوسنا حتى لم نعد نعرف كيف نحافظ على جمال المكان، أغني ذلك الترام الآن ليصبح مكانه معبراً لأتوبيسات النقل العام، تلك الخردة التي ما زال المسؤولون يسيرونها حتى الآن عاقدين عليها العديد من الآمال الحمقاء، أتأمل الزحام حولي، أشعر برغبة قاسية في الاختلاء إلى ذاتي حتى لا أختق من هذا القبح الذي يحيطني، زحام السيارات اللامتناهي يشعرنني وكأنني انحشرت في علبة من علب السرددين الضيقة، أحاول الهروب من أفكاري المتراخمة الخائقة بالذوبان في تاريخية وسط البلد ذات الحنين القديم، أعبر شارع رمسيس الذي يحلو لي دائماً تسميته باسمه القديم شارع الملكة نازلي، الذي كان يؤخذني

على مسماه البعلي حينما يسمعي أطلق عليه ذلك الاسم، أتذكره حينما يقول:

- دعك من تلك المسميات التي تجعلني أظن أنك إحدى الكائنات التي انفلتت من عمق الزمن لتأتي إلى زمان ليس بزمانها.

كنت أضحك مقهقهاً حينما أسمعه يقول لي ذلك إلا أن رغبتني في الضحك الآن كانت قد ماتت أو فقدت قدرتها على الحياة. أتجه صوب شارع فؤاد الأول الذي يحلو لهم الآن تسميته بشارع 26 يوليو بعناقه الطازجة فيه رغم مرور الزمن، كثيراً ما أشعر بتلك الطازجة التاريخية كلما رأيت ذلك المبني المهيب لدار القضاء العالي الذي يتوسط الشارع متوجاً إياه شامخاً في وجه القبح والزيف، كثيراً ما كنت أتساءل بأسى:

- هل يفعل الآخرون بتاريخهم ما فعله نحن تحت مسمى التجديد؟

أتأمل المبني بجلاله وهيبه صورته، أعرف أنه كانت تتقدمه ساحة صغيرة مثثة تتوسطها الخضرة إلا أن طوفان التغيير ذو القبح الدائم لم يبق على شئ فيه سمة الجمال على الإطلاق، أتخطى سينما ريفولي بما تعرضه من أفلام تافهة، أشعر بألم الجوع الشديد في معدتي، يا لتلك الحالة البشعة من الخواء المعدي الذي يصيبني كلما شعرت بحزن ما أو تملكنتني إحدى الحالات العصبية، وقتها أكون على استعداد تام لالتهام كل ما تطوله يدي، أتخيل نفسي في صورة الرقيقة ذات القوام الرشيق الأميرة ديانا حينما حدثتني عنها لينا، أأكون مثلها؟ يا للبشاعة.

تتقبض نفسي المائلة للسوداوية من ذلك التخيّل المقبض، أنحرف يساراً في تجاه ميدان الأفقي ممّنياً نفسي ببعض الشطائر من آخر ساعة ذلك الذي يقف راسخاً في الميدان وكأنه ولد معه على الرغم من قبحه وسط المكان بما يسببه من فوضى وازدحام شديد عليه من قبل المنهومين للأكل، علّه التعود على القبح الذي يكسبه الكثير من الطبيعية مع مرور الزمن الآسن، أمر بجوار الجرائد أوتيل وممره الضيق لأصل إلى ذلك الازدحام القبيح هناك، رغم وجود بعض البارات القديمة التي أعشّقها بينما تجاورها الملاهي الليلية التي أحنو إليها في القليل من الأوقات إلا أنني أشعر بوحشة ما تتنابني حينما تطأ قدمي هذا المكان، أتناول شطائري بينما عينيّ تقع على بائعي الملابس الداخلية النسائية الذين يستوقفون أي عابر من أمامهم لعرض سلعتهم، أمر من أمام سينما كايرو بزحامها المعتاد، أزواج لا تحصى من الشباب والفتيات يقفون أمامها في انتظار حفل الثانية عشر والنصف، بعضهم ينتحي المقاهي المجاورة ليدخنون النارجيلة ذات الرائحة النفاذة للتفاح. أقول ساخراً:

- يا لهم من حمقى.

أفكر في الاتجاه نحو اكسلسيور إلا أن يقيني التام بأنه لا يقدم الخمر قبل الحادية عشر صباحاً يجعلني أحجم عن الذهاب إليه، أعرف أن الوقت سيمر برتابة غير معهودة إذا ذهبنا لأجل منتظراً تقديم النبيذ، تقودني قدماي نحو ميدان العتبة مروراً بالميدان العتيق الذي كان والمسمى بميدان الأوبرا، أية

أوبرا بائسة تلك التي احترقت فذهبت هباء كما ذهب كل ما يماثلها من جمال؟ أصوات المنادين على بضائعهم ذات اللط المتداخل في صخب شديد يكاد أن يصيبني بحالة شديدة من الهياج العصبي، لم أعد أحتمل كل هذا القبح السلوكي. أعبّر ميدان الأوبرا سريعاً متجهاً نحو مقهى "متاتيا" ذو العبق القديم، لم أدر كيف انبثق مثل هذا المقهى هكذا فجأة وكأنه مبعوث من الأزمان القديمة الغابرة، أندش لوجوده الآن، أعرف جيداً أن هذا المقهى الذي كان يختلف إليه قديما الأفغاني وتلاميذه من أمثال محمد عبده قد اندثر مثلما اندثر غيره من العلامات الجميلة التي كانت، ربما مررت بالأمس القريب من هنا فلم أجد سوى بقايا من خرائبه ومجموعة من الأكشاك العشوائية التي يتحلق حولها من يرغبون في الحصول على عقود عمل وهمية إلى الخليج، أعرف أيضاً أنه يكثر هنا من يرغبون في بيع دمائهم وكلاهم، خاصة من السودانيين.

ينتبه إلى أحدهم أحدث نفسي فيظنني معتوهاً، ولكن كيف ظهر هذا المقهى إلى الوجود مرة أخرى بعنايته المألوفة منذ زمن؟ أكون الأمر مجرد أوهام بدأ يصورها لي خيالي؟ ولكن وجودي أمامه الآن حقيقة واقعة لا يمكن إنكارها إلا إذا كنت أحمقاً، أنتحي إحدى الطاولات المنزوية المطلة على الميدان، أحرص على أن تكون جلستي في أحد أركانه المستورة، لم أكن أريد أن يراني أحد، حرصت على أن تكون طاولتي مستورة عن أعين الآخرين وفي ذات الوقت تطل على ساحة الميدان

المشوهة بشكل حديث إلا من مباني بريد ومطافئ العتبة التي ما زالت تحيطه مستميتة في وجه التغيير الذي لا بد سوف يطولها في وقت ما، يقترب منّي النادل بزيه القديم النظيف، تبدو على محياة أمارات الدمائية والتأدب المفقودة الآن لدى أمثاله. ينحني قليلاً منتظراً منّي ما يستطيع تقديمه لي، أطلب منه فنجالاً من القهوة السادة على عجل بينما يدور على طرف لساني سؤال أحرق لا بد منه وإلا أوشكت على الجنون، أقول متردداً بحياء:

- أليس هذا مقهى متاتيا الذي كان؟

ينظر إلىّ الرجل وقد علت وجهه علامات الدهشة حتى كاد أن يتهمني بالجنون لولا بقية باقية من الاحترام الواجب، يقول بعد برهة وكأنه لا يدري بماذا يرد عليّ إن لم يتهمني بالجنون:

- بالتأكيد سيدي هو المقهى الذي تقصده.. ألم تقرأ اسمه بالخارج؟

أقول خجلاً وكأنني آت من زمن آخر:

- ولكن.. أعذرني في تساؤلي، متي افتتحتموه مرة أخرى بعد هذه السنوات الطوال؟

ينظر الرجل إلىّ ببلاهة حتى كاد يعدو من أمامي طالباً النجدة من ذلك المأفون الذي لا بد أن يكون مخموراً إذا لم يكن في حالة جنون مطبق لولا بقية من حياء جعلته يقول:

- نحن لم نغلق أبواب مقهانا منذ وجوده سيدي، يبدو أنك مصاب ببعض الإرهاق ولعله قد التبس عليك الأمر.

يقولها الرجل بحزم واضح هذه المرة منهياً حديثه معي وكأنه قد ظنني معتوهاً، أراه يبتعد عني مرتبكاً بينما ينظر

نحوي بين الفينة والأخرى، أجول بعيني داخل الميدان متأملاً،
 ولكن كيف يكون هذا المقهى قد انبثق فجأة هكذا وسط هذا
 التناثر العمراني الجديد للميدان ذات الطابع الأوروبي الحديث؟
 ها هي تلك الجزر الخضراء الجديدة ذات الطبيعة المصنوعة
 بأسوارها الحديدية المدببة التي تحدها، كانت قد ظهرت بعد
 التخطيط الحديث للميدان وترسيم طرقه وشوارعه الجديدة، أعلم
 جيداً أنه قد تم حفر نفق جديد هنا المسمى بنفق الأزهر الذي
 يمر تحت هذا الميدان المصطخب، بل أنا على يقين بأن دهاليز
 مترو الأنفاق ليست بعيدة عني الآن، أتوه في الأمر مندهشاً
 لأتأمل رواد المقهى الذين يبدو على محياهم بأن كل شئ طبيعي
 وكأنه لم يحدث شئ. أجول بعيني لأفاجأ بأحد الكهول يشاركني
 طاولتي المنزوية في ركنها الخاص، أتأمله مندهشاً، من أين
 انبثق مثل هذا الكهل فجأة هكذا؟ ومن الذي سمح له بمشاركتي
 الطاولة؟ أويكون كلام لنا صحيحاً بأنني قد شارفت على
 الجنون؟ أطرده ذلك الخاطر الغريب من رأسي لأتأمل الرجل،
 منذ متى وهو جالس هكذا مشاركاً إياي في الطاولة؟ لا بد أنه
 يجلس هنا منذ فترة أو لعله كان يجلس إليها قبل مجيئي؛ فكوب
 الشاي الفارغ أمامه يدل على ذلك، ولكن أكون قد ذهب بي
 الشرود إلى تلك الدرجة حتى أنني لم أعد أنتبه إلى رؤية
 الآخرين؟ يا له من يوم ملئ بالمتناقضات، أرى الرجل ينظر لي
 مبتسماً وكأنه يعرفني منذ زمن بعيد، أشعر بالغيط الشديد من
 بسمته، لم أدر كيف تواصل الحديث بيننا ولا من أين بدأ، كل ما
 هنالك أنني انتبهت على ذلك الاسترسال العميق من الحديث
 الضارب بجذوره بيننا منذ القدم، يمرق في عقلي سهم الدهشة

من جراء ما يحدث لي اليوم، حالة عجيبة من عدم تذكر بدايات الأمور تتتابني حتى لكان سحب كثيفة من الضباب تحجب ذاكرتي التي لا بد أن أكون قد فقدتها، أتأمل في حديثه الذي لم أعد أذكره لعدم انتباهي له، ملامحه القديمة الموغلة في الزمن وتجاربه العميقة شديدة الشبه لي حتى لكأنني أرى صورتي بعد مرور العشرات من السنين، أتأمل شعر رأسه الخفيف الذي يشتعل شيباً حتى لكأنه قطعة صافية من القطن الأبيض الضارب للون الأصفر بينما عيناه الفاحصتان هما ذات عيناى تماماً، كان من يرانا جالسين متقابلين هكذا لا بد سوف يجزم بأننا أب وابن، الشبه الشديد بيننا في الملامح ولعلها طريقة الكلام أيضاً، بالإضافة إلى أسلوب التفكير لا يجعل أحداً ما يشك في ذلك. لست أدري متى بدأت أجار بالشكوى إليه مما صار إليه الأمر حولنا من زيف وتشويه:

- يا للملل، هذا الميدان صار يشعرني بالغربة الكبيرة.

يقول بخبث بينما عينيه الضيقتين تزدادان ضيقاً:

- الميدان فقط؟

- ماذا تقصد؟

- الميدان وحده هو الذي تشعر فيه بغربتك اللامتناهية؟

أصمت برهة لأقول زافراً:

- وسط البلد كلها صارت تشعرني بالغربة...

يقول بينما ألمح في حديثه صبغة التحليل النفسي:

- يبدو أنك منفصل تماماً عن مجتمعتك.

- إنني أمقتة بكل ما يتفشى فيه من جهل وتشويه.

- وإذا قدمت لك يد المساعدة؟

أندھش قائلاً:

- أية مساعدة تلك؟!!

- لا تغضب هكذا، يبدو أنك لم تعد تعرف كيف تتواصل مع الناس.

أصمت وقد شعرت بالصدق في حديثه. يقول لي:

- ما رأيك أن نعقد صفقة؟

متعجباً:

- أية صفقة تلك التي أعقدها معك؟

- أنت ضائق بكل ما حولك، شاعر بغربتك بين الناس والمكان،

تتوق للجمال القديم الذي كان.. أليس كذلك؟

مندھشاً:

- بلى..

- سأأخذك في رحلة سريعة إلى وسط البلد وجمالها الذي كان.

يشرد قليلاً وقد بدت على محياه إمارات الحنين ليقول:

- وسط البلد التي لم تعرفها أنت ولا جيلك.

متحيراً:

- وما المقابل؟

- تلك هي الصفقة، آخذك لما تتوق إليه في مقابل دفع

مصاريف الرحلة من نبيذ وما إلى ذلك.

لم يكن الأمر بسيطاً بالنسبة لي، فقد واعدت لنا للقاء في اكسلسيور في تمام الثامنة، ذلك المكان الذي دائماً ما أتوق إليه

إلا أنني لا أقصده إلا حينما يكون جيبى عامراً، كنت أعرف أنني سأنقضى مكافأتي اليوم عن آخر مقال كتبته فواعتدها هناك، ولكن ذلك الرجل يعرض عليّ عرضاً مغرياً لن يتكرر مرة أخرى، أفقد نقودي من أجل تلك المغامرة التي لا أعرف كيف ستنتهي بي؟ وكيف أستطيع لقاء لينا؟ أفكر في الأمر طويلاً إلا أن توفي الشديد للذهاب إلى جمال وسط البلد المندثر جعلني أتمتع قائلاً:

- فليذهب أي شيء آخر إلى الجحيم.

أنظر إليه باسماً لأقول:

- أو افق على عرضك.

يرد وانثاقاً:

- كنت وانثاقاً من ذلك، هيا بنا.

ثقته الشديدة في نفسه أزعجتني كثيراً، كدت أراجع عن تلك الصفقة اللعينة إلا أنني أحجمت لرغبتى الشديدة في خوض التجربة. يقول بينما يتهيأ للنهوض:

- أعط النادل نقوده كي نستعد.

أقول لنفسى ساخراً:

- ها هي بداية الابتزاز.

يقول الرجل بينما عيناه تسبحان في رحلة أبدية باتجاه الأفق:

- من أين ترغب أن نبدأ؟

أقول حائراً:

- أنا من الآن مجرد تابع مطيع يتبعك أينما ذهبت.

- اتفقنا.

بدأ الرجل يروي لي الزمن الذي كان بينما أقدامنا تنتقل ببطء وسط ميدان العتبة العتيق، أراه في روايته وكأنه يناجي نفسه وقد تناسى تماماً وجودي معه، كانت المشاهد تتشكل ذاتياً بينما هو يروي حتى لكأنني في عالم آخر تماماً غير ذلك الذي أعرفه، كلما تحدثت عن شيء أرى الأشياء وقد تبدلت تماماً حتى وكأنها تعيد تشكيل ذاتها مرة أخرى ليعود بنا الزمن إلى الوراء، كل ما كنت أراه من قبح منذ قليل بدأ يتوارى لتظهر أمامي العديد من المشاهد التي لم أعها من قبل، يقول الرجل مناجياً نفسه:

- هنا في هذا الميدان الذي كان يسمى العتبة الزرقاء قديماً والتي جعلتموها الآن خضراء بدأ الخديوي إسماعيل التفكير الجدي لبناء وسط لبلد على ذلك الطراز الفريد الذي رآه من قبل في فرنسا فخلب لبه حتى تملك عليه أمره.

تكتسب أبنية بريد ومطافئ العتبة فجأة ألحاً عجبياً وكأنها قد تم الانتهاء من تشييدها منذ أيام فقط، أتأمل حولي لأرى العديد من الفنادق ذات أسماء لم أسمع عنها من قبل حيث تشغل أدوارها السفلية العديد من المقاهي الذائعة الصيت بالإضافة إلى المحال التجارية التي تتقدمها جميعاً البواكي في طراز فريد ينظمها جميعاً، كنت أرى المقاهي شاخصة أمامي فلم أصدق نفسي، الميدان نظيف وكأنه يتم تنظيفه ليل نهار، القليل من السيارات ذات الطراز القديم تعبره بهدوء بينما القليل جداً من المارة يعبرون الطريق بأرستقراطية شامخة لم نعد نراها الآن،

الجميع يرتدون بدلاتهم الكاملة المحلاة بالكرافت الأنيق بينما الطربوش المنفوخ الذي تم الاهتمام به جيداً وتنظيفه يعلو رؤوسهم بوقار، كانت الأشياء تأخذ بُعداً آخر غير ذلك الذي آلفه، أرى أتوبيساً ضخماً قادماً نحونا وقد علاه دور آخر في تشكيل بديع، ما أن عبر بجواري إلا وسمعتة يقول:

- إنه الأتوبيس أبو دورين الذي أحضره الإنجليز، ولكن ذات مرة بينما كان يدور في ميدان إبراهيم باشا انقلب، أرجع البعض ذلك إلى أنه كان مسرعاً بينما أرجعه البعض الآخر إلى الانتقام الإلهي من الإنجليز، كما كان ياسين صاحب مصانع الزجاج الشهيرة محتكراً للمواصلات في القاهرة قبل سوفت كروفت، تلك المواصلات كانت متعة؛ فبينما تراها مكشوفة في فصل الصيف كي تستمتع بجمال المكان الذي يأسرك حتى أطراف أصابعك كان يغطيها بالكوفرية أثناء فصل الشتاء اتقاء للمطر.. صدقني هنا كنت تستطيع ببساطة أن تشم الياسمين في كل ما يحيطك إذا لم تتبع أحد عقوده من هذا الذي تراه أمامك.

ينطلق إلى أنفي شذي الياسمين وكأنه تخلق فجأة على أثر كلام الرجل، أسمعته يتحدث وكأنه يطلب مني شراء أحد عقود الياسمين من ذلك الفتى الشاخص أمامي، سطوته العجيبة التي تملكنتي جعلتني أشترى له عقداً أعطانيه الفتى بأقل من القرش بقليل. أقول ضاحكا في سريرتي:

- هؤلاء القوم لا يعرفون قيمة النقود على الإطلاق، يبدو أنني لن أنفق الكثير.

أعطيه العقد الذي يضعه حول رقبتة مبتسماً وكأنه طفل صغير قد فرح بهديتي التي أحضرتها له، رغبة عميقة تراودني في ركوب ذلك الأتوبيس ذي الدورين حينما مر من أمامي مرة أخرى، وكأنه لمح الرغبة القائلة في عيني فجذبني من يدي لركوبه، كان الأتوبيس هادئاً يكاد يكون خالياً من الناس، لم ألمح فيه تلك التشوهات الإنسانية التي كنت أراها في عالمي من زحام بشري وسباب زاعق، أتأمل السائق بإعجاب شديد، أراه فإذا بحركة من يده هكذا تجعل الأتوبيس يسير، يا للمهارة، أرى السائقين جميعاً في منتهى الأناقة بطرابيشهم الجميلة الحمراء بينما المحصل يمشي بيننا في مملكته الخاصة متهادياً بشكله المميز بالحزام والحقبة الجلدية والبذلة الصفراء، يأخذ مني مليمين لقاء تذكرتينا، كدت أفهقه ضاحكاً لذلك الثمن الزهيد إلا أنني أدركت نتيجة فعلي هذا إذا فعلته فوضعت يدي على فيّ مبتسماً. أجلس مستريحاً على أحد الكراسي، أتأمل الميدان النظيف الهادئ الذي يعبره الأتوبيس بينما يقابله في الجهة الأخرى تراموي مخصوص لرش الشوارع التي تراها دائماً وأبداً مغسولة مجلوة وكأنه قد تم الانتهاء من تنظيفها للتو. كان سائق تراموي الرش شديد البدانة إلا أنه تبدو على محياه السعادة البالغة بما يفعله، أتأمله بينما عينايتي تنتقلان إلى الخروم التي تملأ التراموي والتي يخرج منها الماء كالرشاش من الجانبين، نوع ما من النشوة العجيبة يشملني لما أراه يتجسد أمامي، يدور بنا الأتوبيس ذو الدورين في اتجاه ميدان الأوبرا فيشير لي

الرجل الكهل كي أستعد للهبوط، أقوم معه بينما قدمي لا تطاوعاني على الهبوط من ذلك الأتوبيس الذي أعطاني الكثير من البهجة، يميل الرجل على أنني هامساً:

- إذا بقيت هكذا دون الخروج معي فلن ترى كل ما أبغي أن أريك إياه وستذهب رحلتك هباء.

ثم يقول مستدركاً:

- أتدري أن شارع الموسكي الكائن في جنوب ميدان العتبة كان به مسجد عتيق يسمى جامع أربك، وأن ذلك الحي القديم كان هو محل إقامة التجار الفرنسيين والإيطاليين والشوام والأتراك؟

أقول متسائلاً في محاولة مني للحاق بحديثه:

- ولكن أين ذلك المسجد الآن؟

- أتقصد في زمانك؟

أومئ له برأسي موافقاً فيضحك الرجل مقهقهاً بينما يده تربت على كتفي:

- أعطاك الله طول العمر.. لقد تم هدمه منذ زمن بعيد بالقياس إلى عصرك عندما تم الشروع في تنظيم المنطقة من أجل شق شارع محمد علي والمسمى قديماً بالقلعة، مثلما تم هدم حديقة روستي الشهيرة والتي كانت من أهم معالم الميدان بأشجارها الشهيرة من السنط والجميز والزيتون والنخيل الملكي والتي كانت حولها تتناثر قنصليات العديد من الدول الأجنبية وفنادق شبرد وفيكتوريا وشالز وغيرها من الفنادق الشهيرة.

أنصت للرجل ذاهلاً بعد أن هبطنا في وسط ميدان الأوبرا،
أطلب منه الرجوع مرة أخرى إلى تلك المنطقة التي تحدث عنها
إلا أنه رفض طلبي بحزم قائلاً:

- لا تضيع وقتك هباء.

أطيعه ذاعناً لقوله، لم تكن لي من حيلة سوى الامتثال لما
يقوله؛ فليس من المعقول أن أضيع بهجة اللحظة الآنية، ولكن
من أين عرف الرجل كل هذه الأشياء التي نراها حولنا؟ أتأمله
محاولاً الوصول إلى عمره المديد، إنه على أكثر تقدير في
التسعين من عمره، أسأله بتردد:

- لكن من أين لك كل هذا العلم بأسرار المكان؟

يضحك الرجل بتؤدة وكأنه يسخر من عقلي الصبياني،
يقول بخبرة رجل عاش قروناً مديدة حتى لكأنه قد وجد منذ
الأزل:

- كم تعطيني من العمر؟

يصمت برهة إلا أنه حينما يرى حيرتي المرتسمة على
وجهي يقول:

- لا عليك، لقد عشت في جميع الأزمان متجولاً وعاصرت
جميع الأحداث.

هل يسخر مني؟ كيف يتأتى له الحياة في جميع الأزمنة
الماضية؟ حينما لمح إمارات التكذيب تلوح على وجهي أسمع
يقول:

- لست بساخر منك، إنها الحقيقة التي لن يستوعبها عقلك، لقد

عشت في جميع الأزمنة الماضية حتى أنك ستجدني في
مستقبلك أيضاً، ربما تنشأ الظروف أن نتقابل مرة أخرى في
مستقبلك المديد ووقتها فقط سأذكرك بصدق حديثي إليك، فأنا
لست بكاذب.

خشيت أن يكون قد غضب إلا أنني أراه يشير إلى دار
الأوبرا - التي لم يعد لها وجود- وكأنه القائم بالأمر:

- ها هي الأوبرا بجمالها العتيق ذي الطزاجة الدائمة، وها هما
المهندسان الإيطاليان أفوسكاني وأورسيني اللذان استقدمهما
الخدوي إسماعيل من إيطاليا كي يسابقا الزمن من أجل
محاولة الانتهاء منها سريعاً، لن تدري على الإطلاق مقدار
المجهود الجبار الذي قاما به كي يجعلها صورة أخرى من
أوبرا لاسكالا بميلانو.

أسمع الرجل يحكي بينما أشاهد ما يقوله رؤى العين، كان
حشد العمال الذي يعمل نشطاً في بناء الأوبرا يضج به الميدان،
يصطدم بي أحدهم الذي كان ممسكاً بعرق كبير من الخشب،
أعتر له فلا يعيرني انتباهاً، أنظر لصاحبي الكهل متسائلاً إلا
أنه يبتسم مهوناً من الأمر ليقول لي:

- دعك منه، أتدري أن ذلك الخشب النادر الذي يحمله هؤلاء
العمال قد تم استيراده خصيصاً من لبنان؟ ولعل ذلك كان
السبب الأساسي الذي ساعد في الانتهاء من هذه الأوبرا في
سنة شهور فقط.

لم يكد الرجل ينتهي من حديثه إلا ورأيت الأوبرا بوقارها
الجميل وقد اكتملت تماماً لتصبح على أبهى ما يكون، أرى

واجهتها المطلة على الميدان التي تكاد أن تقرب من السنتين
متراً، يأسرني منظرها فأقف مبهوراً، لم أنتبه من دهشتي إلا
على صوت الكهل المصاحب لي قائلاً:

- أستقف أمامها هكذا طيلة اليوم؟ دعك منها كي تستطيع رؤية
غيرها.

يقولها بهدوء ثم يشير إلى الجانب الآخر حيث الجمال
الأخاذ، أذكر أنه في زمني كان ما يشير إليه مجرد قطعة
صغيرة من الأراضي الخضراء المتقلصة والمهملة دوماً في
قلب الميدان، أذكر أيضاً إنها لا تكاد تحوي سوي اللصوص
والشواذ والباعة الجائلين ناهيك عن بعض بنات الليل، إلا أن ما
أراه الآن كان شيئاً آخر مختلف تماماً، أقول هاتفاً كطفل صغير:

- أليست هذه حديقة الأزبكية؟

يقول مقهقهاً:

- في زمانك أنت تستطيع أن تطلق عليها مزابل الأزبكية أو ما
يحلو لك من مسميات، أما في هذا الزمن الذي نعيشه الآن
فهي بالفعل فردوس الأزبكية المفقود في زمانكم التي قام
بتنسيقها ماريل دي شام منسق الحداثك الملكية الفرنسية حتى
جعلها صورة جديدة تكاد أن تضارع حداثك مونكيو الفرنسية
الكائنة في قلب باريس.

كان الزمن يمر أمامي متسارعاً كطرفه جفن العين، ما أن
يبدأ حديثه إلا وأرى التجهيزات التي كانت لإعداد المكان وما
أن ينتهي إلا وأرى كل شئ مكتملاً في صورته النهائية وكأنني

أمام فيلم سريع ينتهي كومضة. كان الرجل يتجول بنا آنياً في عمق التاريخ بلا ترتيب فيحيرني معه، يراني متأملاً للجمال البكر فيجذبني من يدي لدخول تلك الحقائق الغناء. أسمعه يقول:
- تعال، سأريك ما لم تره من قبل.

أرى مدخل حديقة الأزرابية تحفه الأشجار النادرة على الجانبين بينما تتخللها العديد من الأزهار ذات الألوان المختلفة، يحيطني من جميع الجهات شذي الياسمين الذي تستطيع تنسمه في أية جهة تذهب إليها، ينحني لنا أحد الحراس عند دخولنا، في انحناءته إجلال ووقار، أسمعه يحيي الكهل الذي يرافقني فأرى رفيقي وقد رفع يده نصف رفعة، يا لذلك الرجل العجيب، أيعرفه كل من المكان؟ نعبر المدخل المصفوف بالأشجار لتطل عليّ مساحات شاسعة من الخضرة المختلفة، التي تبدو وكأنها أتت من جميع بلدان العالم، يشير إلى منتصف المكان تماماً قائلاً:
- تعال لترى.

أطل على ما أشار إليه فإذا هي بركة متسعة بها من الأسماك النادرة والملونة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، كانت البركة شديدة الصفاء بمياهها المتجددة دوماً بينما تطل عليها جبالية مرتفعة نوعاً ما، أسفلها مغارة من ناحية لا بد أنها للعشاق الذين يتبادلون عشقهم المختلس فيها بعيداً عن أعين المتلصصين بينما في الناحية الأخرى يقبع كشك أنيق للموسيقى يلتف حوله ذوو الآذان الصاغية الذين لم يعيشوا في عصري لتلوث آذانهم بما نسمعه من نشاز، كانت الخضرة الزاهية تتسع

لتغطي أرجاء المكان حتى لكأنك في عالم كله من اللون الأخضر الذي يتخلل مقاعد الزائرين والتي تظللها مجموعات نادرة من الأشجار التي جلبت من جميع أرجاء الأرض. يقول الكهل وقد رآني مشدوهاً:

- لا تفتح فمك هكذا كالأهمل لنلا يظنك أحدهم أحد المجاذيب،
تعال، ألسنت من عشاق السينما؟
أقول مندفعاً:

- بلى.. فأنا أكتب النقد السينمائي.

- هنا في هذا المكان البديع تستطيع أن تجلس في سينما حديقة الأزرابية ولكن هذه المرة للاستمتاع وليس الكتابة.

لم أكن أنتظر تلك المفاجأة التي وقعت على رأسي كالصدمة، هنا في تلك الحقائق الجميلة سينما؟ وفي الهواء الطلق هكذا؟ يجذبني الرجل لنجلس في أحد الأركان بعد أن قطعنا تذكرتين بخمسة قروش، كانت السينما بالفعل في الهواء الطلق، نجلس إلى طاولاتنا الخشبية ذات الذوق الرفيع، أتناول النادل بمشروب كان عبارة عن خشاف بالآراسيا بالصنوبر، يطلب الكهل نارجيلة وينهمك في تدخينها بينما ينبهني هامساً أن المشروب مضافاً في التذكرة إلا أنني لا بد أن أدفع قرشاً آخر من أجل النارجيلة، أدفعه صاغراً بينما عينيّ تجولان في المكان الساحر. لم أنتبه للفيلم الذي كان يعرض أمامنا فلم أستطع تذكر أحداثه أو حتى أبطاله بعد انتهائه؛ فسحر المكان كان قد شغلني عنه، يقول الرجل بعد أن خرجنا من سينما الأزرابية إلى

خضرتها الأسرة:

- تستطيع أن ترى أم كلثوم هنا وتستمع إليها إذا اتسع لنا الوقت وأتينا مساءً، بل لعلك إذا كنت من ذوي الحظ السعيد أن ترى الملك فاروق ذاته، فهو يحضر بعض تلك الحفلات.

أقول مأخوذاً:

- أسنخرج الآن؟

- بالطبع وإلا ما استكملت رحلتك التي بدأتها.

نخرج وقد أصابني شئ من الحزن لفراق هذا الجمال، أشير إلى أحد المباني ذات العمارة الجميلة وقد اتخذ مساحة شاسعة من الميدان فيقول لي:

- انه فندق الكونتinentال الذي لم يعد له وجود في عصركم.

في جهة أخرى مقابلة لدار الأوبرا بشيء من الانحراف أسمعه يقول مشيراً:

- هذا الذي تراه أمامك كازينو الأوبرا لصاحبه ذات الباع الطويل في الفن الجميل صفة حلمي.

أقول وقد عادت إليّ سعادتِي:

- لم لا ندخله قليلاً، علنا نحظى ببعض الوقت الجميل؟
يقول متخابثاً:

- لن تجد ما تبحث عنه هنا، انه في شارع كلوت بك وعماد الدين.

أصمت متأملاً للميدان من حولي، يتوسطه تمثال إبراهيم باشا ممتطياً حصانه على قاعدة رائعة من الرخام بينما كانت

تحيط به نافورات وأحواض للزهور، أتأمل جمال المكان وأرستقراطيته السماء لأسمعه يقول لي:

- هذا التمثال قد صار سيئ السمعة في الآونة الأخيرة.
أندعش متسائلاً:

- لماذا؟

- إذا قدمت إلى هنا ليلا ستجد العديد من الشواذ الذين يتلاقون هنا تحته.

أنتم متعجباً:

- حتى في ذلك الزمن؟!

يقول وقد سمعني:

- إنهم في كل الأزمان، دعك من هذا وتعال كي أريك شانزليزيه القاهرة.

تأخذني الدهشة فأقف متأملاً إياه ظاناً أنه يسخر مني إلا أن علامات الجدية الواضحة على وجهه جعلتني أتساءل:

- هل هناك ما يسمى بالشانزليزيه هنا مثلما هو الأمر في باريس؟

- بالتأكيد، انه شارع إبراهيم باشا الذي تطلقون عليه في زمانكم شارع الجمهورية.

يجذبني الرجل من يدي بينما عيناى تجولان حرة في أرجاء المكان، كانت رموز وعلامات المعمار ذي الطابع الفني الأسر الذي يأخذ ذلك الطابع الإيطالي العتيق تتراكم على المكان فتكاد أن تشعرك بأنك تسير في أحد شوارع الفن الزاهرة، أرى العديد

من الأبنية والمتاجر ذات الطراز المتشابه إلى حد بعيد مع تلك التي أحاطت بالأزبكية، هناك أيضاً بعض الفنادق التي كان أشهرها فندق شيبرد بمعماره الفني الرفيع، أتأمل الشارع بامتداده الطويل ذي الاستقامة بينما الأشجار الوارفة تحف الجانبين حتى لكأنني لست في وسط البلد التي كنت أعرفها، حركة الحناطير ذات الوقع الموسيقي الصادر من سنايك الخيل له انسياب خاص في الأذن بينما تعدو القليل من السيارات ذات الطابع الأربعيني، الشارع يكاد يبدو خالياً، أتأمل رواده القلائل الذين يرتدون بدلاتهم الكاملة وطرايبشهم الحمراء في أناقة لم نعد نعهدها، القليل من النساء يرتدين زيهم الأثير المميز لذلك الزمان العتيق بينما يسرعن الخطو في استقامة، أدقق النظر في إحدى تلك النساء متأملاً إياها بعينيها الواسعتين المكحلتين، كان فيهما ذلك التناقض الحاد بين الأبيض والأسود الذي أعشقه كثيراً في عينيّ لينا فتمتلك عليّ زمام أمري، أتأمل خطوات المرأة الواثقة ذات الدبيب الراسخ على الأرض، تتهادى أيتها في رسوخ مع كل خطوة تخطوها، كان فيهما ذلك الانسياب المترجرج الذي يميز ردفي لينا، أوتكون هي تلك الواعدة وقد حاصرتني في جميع أزمانى؟ أنتبه على صوت الرجل:

- لا تنظر للنساء هكذا أيها الأحمق، أنت هنا لست في زمنك وقد يقضي عليك أحدهم هنا إذا ما رآك تنظر إلى النساء بمثل هذه الوقاحة.

تجول عيناى في المكان متجاهلاً كلام الرجل لي، أشعر بأنى في حلم لا أرغب في الإفاقة منه، يا للجمال لو ظلت أحياء

في هذا العالم، تشكل المقاهي المتناثرة ذات الباكيات المتشابهة بطرازها الإسلامي العتيق منظرًا متآلفًا جميلًا، ألحظ أن معظمها يحتوي على بار جميل هادئ، أشعر بالرغبة الشديدة في احتساء كأسين من الويسكي، أخبره برغبتني إلا أنه يعرض عنها قائلاً:

- سنحتسي كل ما نرغبه، ولكن ليس هنا.
متذمراً:

- أين إذن أيها الحاكم بأمره؟

يقول غير ملتفت لي وقد استمر في سيره:

- هناك في ميدان المحطة الذي تعرفونه باسم ميدان رمسيس.

أحدث الخطى محاولاً اللحاق بالرجل الذي اتسعت خطواته، ألحقه وقد قاربنا على ميدان المحطة برواده الكثيرين نوعاً، الذين يصبون فيه من شتى الأقاليم زواراً أو مسافرين، كان الميدان على الرغم من زحامه النوعي يبدو هادئاً جميلاً تميزه النظافة التي هي طابع عام لأرجاء وسط البلد، أندش حينما أرى التمثال الذي يتوسطه. أقول مشيراً:

- أليس هذا تمثال نهضة مصر لمحمود مختار؟

- بلى، فيم تعجبك.. ألم تره من قبل؟

- بالتأكيد رأيته، ولكنه في زمني في مستقره عند جامعة القاهرة.

- هذا التمثال أزاح الستار عنه في موقعه هذا الذي أمامك الملك فؤاد في الثلاثينيات في احتفال مهيب، كان ذلك قبل إعادة تنسيق الميدان في الستينيات؛ ورفع هذا التمثال ليوضع مكانه تمثال رمسيس.

يستطرد الرجل:

- تعال نتجول في الزمن لأريك ذلك الحفل البديع.

يأخذني الرجل لنجول في الزمن الذي كان، لست أدري كيف تتشكل الأشياء بقوتها الذاتية فتتغير متحولة، أقول مأخوذاً وقد رأيت ذلك الحفل المهيّب الذي انبثق أمامي عندما أزاح الملك فؤاد الستار عن التمثال:

- كم كان جميلاً ذلك العصر الذي نحياه الآن.. إن هؤلاء الناس فيهم ألق عجيب لست أدري مصدره.
مبتسماً:

- انه سحر الماضي أيها المجنون بالتوق إلى ماضيك.

أتأمل مباني السكة الحديد في ارتفاعاتها الشامخة وصورتها الجميلة المجلوة، كانت تشغل ضلعي مستطيل بينما كانت ولا تزال تعد ملمح التنظيم والهوية لذلك الميدان العريق، بالتأكيد أن من قام بالتخطيط لمثل هذه المباني كان فناناً عاشقاً بحق؛ فقد استوحى الطراز الإسلامي الذي أدمجه مع الطراز الأندلسي ذي الحنين القديم، كانت القاهرة بوسطها الجميل تعد بحق مدينة للفنون والفنانين. يقول الرجل بهدوء:

- هذا الشارع أطلق عليه الملك فؤاد اسم زوجته الملكة نازلي بعد أن كان يسمى شارع عباس نسبة إلى عباس حلمي الثاني، أما بعد التشويه الخطير الذي قاموا به فقد صار بقدره قادر شارع رمسيس.

أسمعه بينما عيناى تجولان جاهدة لرؤية شارعي الفجالة وكلوت بك بشهرتهما ذات التضاد، ينظر إليّ فيلمح حيرتي.

أقول:

- أين كلوت بك والفجالة؟

يشير بيده وقد انحرف بعض الشيء عن الميدان:

- ها هما هناك، أيهما تود رؤيته؟

- الاثنان.

ندخل شارع الفجالة المزدهم بالمكتبات، أقول محدثاً ذاتي:

- يا لهذا الشارع، إنه منذ القدم مصدر للإشعاع الثقافي.

العديد من الكتب التي كنت أسمع عنها ولم أعد أراها
لاندثارها تتراكم أمامي جديدة مزهوة، ها هي العديد من
المكتبات المزدهمة بروادها الكثيرين، أندھش كثيراً، مكتباتنا
اليوم تكاد تكون خاوية من زوارها لا تستطيع أن ترى فيها إلا
كتبها الحزينة لفرط ما وضعت على رفوفها دون قارئ يقتنيها.
أتساءل هامساً:

- من أين يأتي كل هؤلاء لشراء الكتب؟

يتهاذى إليّ صوت أحدهم هادئاً وكأنه يهمس لنفسه، أسمعه
يسأل عن كتاب الملل والنحل لأبي الفتح الشهرستاني، ألمح في
حديثه لهجة ريفية ما، أتجه إليه ببصري متأملاً إياه ببذله
الكاملة ذات الكرافت والطربوش الأحمر النظيف، رغم زيه
الكامل الذي يحرص على نظافته إلا أن سماته الريفية تبدو على
محياء من خلال نظراته غير الثابتة غير الواثقة، أرغب في
اقتناء أحد الكتب الذي لم أعد أذكر اسمه إلا أن الرجل الكهل
مانعني حازماً، اترك المكان بينما أتميز غيظاً، أهب في وجهه:

- مالك تتعامل معي هكذا وكأنك قد امتلكتني؟ أعبد أنا؟

يقول هادئاً واثقاً:

- لست بعبد لي، ولكن الصفقة المنعقدة بيننا كانت واضحة.
 - صفقتك اللعينة هذه كانت قاصرة على مصاريف الرحلة فقط.
 - إذا تأملت لحظة لأدركت أنها تتضمن في ثناياها الطاعة الواجبة لي طوال الرحلة لأنني المسئول عنك فيها.
- يقول بعد لحظة:

- إذا رغبت في إنهاؤها الآن فليكن، ليس لدي أي مانع.

أصمت حائقاً لنتجه صوب شارع كلوت بك بشهرته الواسعة ونسائه الجميلات الممتعات، الكثير من الإنجليز يرتادون الشارع بزيمهم العسكري المميز، الكثير منهم يرطن بإنجليزية رصينة ذات نغمات واضحة مع بعض المومسات المصريات اللاتي يعرفن اللغة جيداً، أرى أحدهم وقد انتحى أحد أركان الشارع متحدثاً مع إحداهن بعربية متكسرة مثيرة لعاصفة من الضحك، أتأملها في جونلتها الشديدة الضيق، الشديدة القصر التي تكاد تظهر سروالها الداخلي الصغير الذي لا بد أنه الآن يحبس حركة ردفها الراغبين في الانطلاق، تتأثر داخلي رغبة قوية مستميتة لمضاجعة تلك المرأة حينما أتأمل ساقها الملفوفتين، لهما لمعان ذو ألق مبهر يكاد أن يغشي العين في وقفتهما المتثنية وكأنها عكاز معقوف من أعلى، نهذاها الباذخان يكادان يشقان بلوزتها الصارمة الضيقة ذات اللون الأحمر الزاهي حتى لكانهما أسيران يتوقان للحرية البعيدة، تتهادى إلى أذني بعض كلمات سباب من الرجل الإنجليزي الذي يساومها،

كانت مصممة على جنية كامل إلا إنه لا يرغب في دفع أكثر من نصف جنية، ترفض المرأة بشموخ غريب ثم لا تلبث أن تتركه بدلال متنتية في مشيتها التي تكاد أن تذهب بأرواح الجميع، كانت تعي جيداً ما لفتنتها من أثر خلاب على الرجال مما جعلها تدرك أن الرجل لا بد سيتبعها ذليلاً مذعناً لرغبتها. يُسرّع الرجل الإنجليزي بصلفه العجيب خلفها ليجذبها بقسوة من ذراعها اللين الذي ظننته قد انخلع في يده، يتعالى صوت المرأة صارخاً إلا أن رواد الشارع الكثيرين ينظرون إليها بلا مبالاة وقد بدت في عيونهم الرغبة فيها إلا أن وجود الإنجليزي معها يجعلهم يستمرون في طريقهم، أشعر بغیظ شديد من ذلك الإنجليزي، أسرع لتخليص المرأة من يده فيجذبني الرجل الكهل محذراً:

- إياك أن تتدخل.

- ألا ترى ذلك المأفون وفعله معها؟

كان صوتي قد ارتفع مما جعل البعض يلتفتون إلينا. يقول الرجل الكهل هامساً:

- لا تلفت إلينا الأنظار ودعك منهما، إنها حياتها التي ارتضتها لنفسها وهي تعرف كيف تعالج الأمر.

أصمت مذعناً لأسير إلى جواره، أمر من جوارهما فأراهما يتحادثان بينما عيناها الجميلتان تنظران في عيني بجرأة غير مألوفة، كانت عيناها داعيتين إلى عشق لا ينتهي مع ذلك الجسد الأسر، أقاوم رغبتني في اختطافها، أهرب من عينيها بتأمل

الشارع ذي البيوت والبارات المتعددة. أقول للرجل:

- أَلن ندخل أحد هذه البارات لنتناول شيئاً؟

- لا يمكنني الاطمئنان لك هنا بينما تلك الرغبة العارمة التي

تعمل داخلك نحو النساء تمتلك عليك زمام أمرك.

- لكنك وعدتني أن نحتسي كأسين.

- سنفعل، ولكن ليس هنا، بل هناك.

يشير الرجل بيده نحو ميدان المحطة، أتجه صاعراً عابراً

الميدان الفسيح بسياراته القليلة وحناطيره التي تتهاذى هادئة،

ندخل أحد المقاهي الذي يوجد بداخله بار يتوسط المكان بينما

يقف خلفه أحد السقاة الذي يبدو على محياه أنه ذو أصل أجنبي،

ما أن يعتلي صديقي لكرسيه العالي الكائن أمام البار إلا ويحييه

الساقى بمودة تدل على أنهما متعارفان منذ زمن بعيد، يتبادلان

بعض الكلمات ليقول لي الرجل بحزم بينما يرشف كأسه:

- سنعيد صياغة الصفقة التي بيننا هنا وإلا تفارقنا الآن.

أقول بجفاء:

- هات ما لديك.

يقول بمودة متجاهلاً جفائي:

- إذا رغبت أن تكمل رحلتك فعليك الالتزام بعدم التدخل فيما لا

يعنك، إن هذا العصر ليس عصرك وهذا الأوان ليس أوانك،

إنك مجرد ضيف على هذا المكان، ألم تسأل نفسك لماذا

رفضت أن تقتني الكتاب الذي أردته؟

أنظر إليه متسائلاً في انتظار إجابته ليقول:

- لأنه لا يحق لك على الإطلاق أن تأخذ شيئاً من هنا إلى

عالمك.

- أهذا قانون المكان؟
- إنه قانوني الخاص بي أنا، وبما أنني قائد الرحلة فكلامي وإرادتي قانون ينفذ على من يصاحبني.
- أجرع كأسى دفعة واحدة لأقول له:
- هيا بنا.

نخرج إلى عرض الميدان لأرى الأتوبيس ذا الدورين يمر من أمامي، شعرت بسعادة قصوى حينما استقلتته عندما كنا في ميدان الأوبرا الخديوية فطلبت منه أن نصعد إليه، يطيعني الرجل مبتسماً، حينما ينتبه الرجل إلى اتجاه الأتوبيس الذي سلك شارع الملكة نازلي يطلب منّي الهبوط، أهبط غاضباً ليقول لي:

- سنعود من شارع الشيخ عماد الدين.

ما أن قالها الرجل إلا وانطلقت ضاحكاً، أرى الرجل ينظر نحوي ببلاهة متسائلاً إلا أن رغبتني في الضحك حالت دون الرد على تساؤل عينيه. يقول الرجل بعد فترة:

- علام تضحك؟

أقول من بين ضحكاتي المنهالة:

- أضحك على التفاوت المتناقض بين الاسم والواقع.

- أي تناقض هذا؟ إن هذا الشارع ينسب إلى الشيخ عماد الدين الذي يوجد ضريحه في عصركم بالقرب من تقاطع محمد فريد مع شارع الشيخ ريحان، ولكي أزيدك علماً فإن امتداد شارع عماد الدين من شارع فؤاد حتى شارع الناصرية قد أطلق عليه اسم المجاهد محمد فريد عقب وفاته 1929.

- أسمع التاريخ الذي يرويه لي الرجل خجلاً مما فعلت، أتابعه في خطواته التي اتسعت بينما عينيّ تجولان في رحلة بصرية جميلة مستكشفة لعمق المكان، كان الشارع بحق برودواي مصر كما قال لي الرجل الكهل، أرى الشارع وكأنه مقسوم إلى نصفين، نصفه الأول الذي أراه الآن من ناحية المحطة عامر بالمسارح والسينمات والعديد من الملاهي الليلية المصطخبة، يا للجمال، يبدو أن هذا الشارع كان شارع الفن باصطخابه الدائم، أشير بإصبعي إلى إحدى السيارات القديمة الفارهة فرحاً:

- أليست هذه أم كلثوم؟

كانت المرأة تهبط من السيارة بوقار بينما يحيطها العديد من المحققين بها. يقول الرجل:

- إنها هي، سوف تغني هنا الليلة في هذا المحل على ناصية فؤاد الأول.

أبتسم ساخراً:

- هذا المحل قد صار عمارة ضخمة في زمني.

باسماً:

- إنه قانون الزمن المتغير.

أرى مسرح بريطانيا الذي تعلوه العديد من الملصقات مصورة عبد الوهاب، كان الإعلان يؤكد أن الرجل سيشدو بصوته الملائكي الليلة وكل ليلة أغنية جديدة له، أجول ببصري الذي يقع على مسرح الريحاني العتيق، ما زال في ذات المكان

في عصري إلا أنه لم يكن في نفس الشكل البهيج الذي أراه الآن، كان المصق الذي يعلو بابه يعلن أنه سيقدم الليلة رواية كشكش بيه، أو اصل السير فرحاً بما أراه، أرى محلاً كبيراً تبدو عليه الكلفة. أحاول قراءة اسمه المتألئ فيساعدني صاحبي:

- اسمه البارزيانا.

أقول متسائلاً:

- وما هذا البارزيانا؟ أهو أحد الباربات؟

- بالطبع لا أيها المعتوه، انه أشهر محلات الطعام.. هنا تستطيع أن تأكل الأرز بالمخ.

ثم يقول متلمظاً:

- ليس أي أرز مثل الذي تأكلونه في أوانكم، انه أرز الأفرانسيه.. شئ يجعلك مخبولاً من جمال مذاقه.

أسأله محاولاً الهروب من الفخ الذي يعده لي كي أدعوه لتناول ذلك الأرز:

- ما هذه البناءات الضخمة البديعة؟

- إنها عمارات الخديوي التي قام بتصميمها وتنفيذها النمساوي أنطونيو لاشاك بك مهندس بلاط الخديوي عباس حلمي الثاني.

كانت البناية تشكل آية من آيات الفن الجميل. أسأله مستدركاً:

- ألا يوجد هنا مسرح لفرقة علي الكسار؟

- ها هو أمامك أيها الرجل.

أتأمل العديد من البارات المختلفة المزدحمة متلاصقة في الشارع المليء بالحياة الفنية الصاخبة. كنت قد اندمجت تماماً في العالم الأثير الذي أراه حتى أنني قد نسيت تماماً عالمي القبيح ولينا والبعلي ورئيس التحرير الذي تشاجرت معه. نخرج من شارع الشيخ عماد الدين بفنونه الزاخرة متجهين نحو شارع 26 يوليو. يقول الرجل وكأنه شارد:

- إنه شارع فؤاد الأول وقد كان أساسه الطريق الذي قام بتمهيده الفرنسي لوبير كبير مهندسي حملة بونابرت تسهياً لمرور فرق الجيش الفرنسي وسرعة وصولها من ميناء بولاق إلى الأزبكية حيث مقر قيادة الحملة بقصر محمد بك الألفي.

أتأمل الشارع الذي تم شقه بشكل يكاد يتعامد على مجري النيل. كان الخديوي إسماعيل أكثر ذكاء حينما شق شوارع وسط البلد؛ حيث حاول أن تكون جميعها موازية للنيل مما يقي الناس أشعة الشمس الحارقة ليل نهار، أما هؤلاء الفرنسيون الأغبياء فلقد شقوها بشكل طولي فتعامدت الشمس تحمي الرؤوس طيلة اليوم على شوارعهم، المباني الموجودة في الشارع تكاد تكون موجودة لا زالت في زمني إلا أن الفارق الوحيد أن هذه التي أراها الآن كانت أكثر جلوة وألقاً. يقول الرجل هامساً:

- تعال، الحرارة هنا شديدة، سنخرج من هنا إلى شارع المغربي.

أتساعل هادئاً:

- أي مغربي هذا؟

- انه شارع عدلي باشا يكن في زمانكم والذي كان ينسب إلى القاضي صلاح الدين يوسف المغربي الذي شيد لنفسه جامعاً عامراً وقبة دفن فيها.. لقد كان رئيساً للأطباء في زمن الناصر قلاوون ولكن الأيام دائماً تأتي بما لا تشتهي السفن فتخرب الجامع بتخرب المنطقة عموماً ولم يبق بها سوى ضريح المغربي في مدخل العقار رقم 30.

كان الرجل يروي تاريخ الأماكن بينما عيناى تجولان بحرية في الإبداع المتناسق الكائن حولي، يبدو المسجد بالفعل آية من آيات الفن الإسلامي في العصر المملوكي القديم، مساحته الشاسعة تجعلك تتأمله مبهوراً بما يحتويه من أعمدة رخامية هائلة بديعة التنسيق بينما الزخارف والآيات القرآنية تزين جدرانها المرتفعة والتي تعلوها قبة سماوية عالية معشقة بالأرابيسك الجميل وقد تدلت منها مشكاة هائلة الحجم حتى كأنها ستهبط على رؤوس المصلين محطمة إياها، أرى المسجد زاخراً بطلاب العلم وحلقاته المختلفة يتدارسون العديد من المسائل الفقهية المعقدة، أسمع صوت أحدهم يتعالى معترضاً على ما يقوله شيخه:

- لكن الإمام الشافعي اختلف معك في مثل هذا الرأي.

يستمتع له الشيخ مبتسماً بسماحة وقد بدت على وجهه علامات الوقار والهيبة الممزوجة بالسماحة وسعة الصدر،

أسمعه يقول بهدوء بعد أن انتهى طالبه من الحديث:

- أعلم يا ولدي ما قاله الإمام الشافعي رحمه الله، ولكن الدين بسماعته أعطانا حق الاختلاف القائم على الاجتهاد وإذا لم يكن الأمر كذلك لصار من سبقوني في العلم مجرد آلهة نأخذ عنهم ما يقولونه دون نقاش أو مساس بما يعتقدونه والذي توصلوا إليه عن طريق أعمال أذهانهم.

يقول الشيخ منهياً حديثه:

- هناك فارق كبير يا ولدي بين القرآن والسنة كمصادر للتشريع، وبين الفكر الديني الذي يختلف باختلاف الأشخاص والزمان والمكان.

أرى الطالب الذي يستمع إليه وقد التزم الصمت والتأدب مقتنعاً بكلام شيخه الجليل. أبتسم لما أراه كي أسير مع صاحبي إلا أن يدي ترتفع فجأة مشيرة:

- أليس هذا هو المعبد اليهودي؟

يقول الرجل:

- بلى، انه معبد شعار هاشماشيم أو معبد الإسماعيلية الكبير، وهو يمثل أهم المعابد اليهودية بالقاهرة ومقصدا لكبار الساسة الإسرائيليين.

أرى أحد هؤلاء اليهود يسير هادئاً في وقار متجهاً إلى معبده لأداء شعائره الدينية. يلتفت الرجل اليهودي إلى رفيقي فيحييه وكأنه يعرفه منذ زمن بعيد، يرد عليه الكهل التحية مصافحاً إياه ليحتضنه مقبلاً إياه في خده، يا لهذا الكهل الذي لا

يخلو مكان من معرفته، كان المعبد في أوجه الشامخ وقد امتلأ حتى آخره بالمتعبدين اليهود الذين يقيمون شعائهم الدينية، أتأمل الشارع الهادئ الذي طالما أعطاني إحساساً عميقاً بتوقف الزمن فيه حتى لكأنه لا يمر على الإطلاق، على الرغم من كثرة رواه نسبياً من المتعبدين المسلمين واليهود والمتأمرين إلا أنه يبدو هادئاً كعادته. يجذبني الرجل في اتجاه شارع شريف ليقول:

- هذا هو شارع المدابغ حيث كانت مدابغ الجلود بالقاهرة بمنطقة حوض الشرفاوي وسوق العصر جنوبي ميدان باب الخرق إلا أن الأهالي تضرروا منها فتم نقلها إلى أرض اللوق ليتم نقلها مرة أخرى إلى موقعها الحالي خلف سور مجرى العيون.

يقول الرجل:

- هذا الشارع يمتد من شارع فؤاد ليقاطع مع شوارع عدلي وثروت وقصر النيل حتى شارع رشدي باشا عند مبنى الأهرام القديم وبار اللواء الذي كانت الصحيفة تعد داخله ثم نسب الشارع في النهاية إلى محمد شريف باشا.

كانت المدابغ المختلفة تكاد أن تزكم الأنوف برائحتها الكريهة المنبعثة منها، هناك العديد من العربات العفنة المحملة بالجلود ذات الرائحة الجيفاء، أرى العمال يفرغون حمولاتهم كي يهرب سائقوها بسرعة من هذه الرائحة اللعينة. أقول متأففاً:

- كيف لسكان هذه المنطقة تحمل هذه الروائح النتنة؟

يقول الرجل متجاهلاً تساؤلي:

- أترى تلك الفيلا الجميلة بحديقته المتسعة ذات الأشجار الوارفة؟

أتابع يد الرجل المشيرة لتقع عيناى على إحدى البنايات الصارخة الجمال الكائنة عند ناصية شارعى شريف وقصر النيل. يتابع الرجل حديثه:

- إنها المفوضية الفرنسية وقد بنيت منذ بداية عهد إسماعيل باشا وبعد انتقالها من هذا الموقع تم بناء عمارة الايموبيليا الشهيرة مكانها تماماً.

أسمع أصوات العصافير الهائلة والتي تتخذ من أشجار الحديقة مستقراً لها تتطلق لتملأ المكان زقزقة مخملية توحى لك بأنها الجنة الحقيقية. أقول للرجل برغبة صادقة:

- لم لا نذهب إلى شارع سليمان باشا؟

- لماذا هو بالتحديد؟

- هذا الشارع أعشقه.

ننحرف مرة أخرى باتجاه شارع عدلي ليلفظنا تماماً أمام سينما ميامي، كان اكسلسيور على يميننا، أذكر أنني قد واعدت لنا هنا في الثامنة مساءً، لا بأس، بالتأكد سوف ألحق مواعدها. يقول الرجل:

- هذا الشارع لم يتغير كثيراً في عصركم باستثناء الواجهات السفلية للمباني التي شوهموها بملابسكم وأحذيتكم المعروضة للبيع.

أحاول الهرب من كلام الرجل الساخر متأملاً ما حولي، تقع عيناى على أحد المقاهى الزاخرة بروادها أمام سينما راديو، أندersh لوجوده فيقول الرجل مفسراً:

- إنه مقهى سفنكس الذي صار في وقتكم محلاً للأحذية.

أستمر مع الرجل متأملاً الجمال الكائن حولي لأقف مشدوهاً أمام تمثال سليمان باشا بزيه العسكري الشرقي الجميل وقد توسط الميدان. يقول الرجل:

- أتعرفه؟

- بالتأكيد، انه الكولونيل سيف الذي اشتهر بعد إعلان إسلامه بسليمان باشا الفرنسي.

أدور حول نفسي حالماً، ها هو عم مدبولي يقف بجلبابه خلف كتبه المعروضة في أحد أركان الميدان، كان الرجل ما زال بعد يفترش الأرض بكتبه المتعددة التي يجئ إليها الكتاب والمثقفون من كل حذب لشرائها منه، كان الرجل صديقاً للجميع يعرفهم واحداً بعد الآخر، أتأمله داخل كشكه البسيط العامر بالكتب، أبتسم له محيياً، يرد الرجل تحيتي، يبدو أنه لا يدري أنه سوف يعرفني جيداً في المستقبل، أتجه بعيني صوب جروبي، كان ما زال في بداياته الحيوية ورواده الكثيرين، أرى العديد من الكتاب ذوي المشارب المختلفة يتجهون داخله إلا أن معظمهم كانوا من ذوي الرفاهية، الآخرون من الكتاب المتصعلكين لم تكن لديهم الجرأة الكافية لدخول مثل هذا المكان إلا في بعض الحالات النادرة حين تكون جيوبهم عامرة. يقول

الرجل الكهل:

- هذا المكان كما تراه الآن بمطعمه الواسع الجميل المليء بالأشجار الوارفة والزوايا الهادئة التي يجلس إليها المحبون، وكذلك البار الفخم الذي يتصدر المكان لم يعد له وجود في عصرك بعد أن اشتراه أحد المستثمرين المصريين القادمين من هجرة طويلة لشبه الجزيرة العربية بنية إبطال شرب الخمر.

أستمع إليه ساخراً من هؤلاء الموهومين الذين يريدون تسيير العالم تبعاً لقناعاتهم، في جانب آخر أرى مكتبة جميلة زاخرة بالكتب. أقول هامساً:

- أليست هذه دار الشروق؟

- بالتأكيد لا، إنها مكتبة هاشيت، وهذا هو الفرع الثاني للفرع الرئيسي الكائن عند تقاطع شريف مع قصر النيل، إلا أنه بمرور الزمن وبدلاً من تحويلها إلى محل أحذية كما حدث لغيرها اشترتها دار الشروق ليتم تأسيسها بطرازها الإسلامي كما تراها في زمانكم.

كانت المكتبة ذات باب زجاجي جميل له إطار خشبي مغطى بستائر بيضاء وقد رُسم على الزجاج شعار المكتبة عبارة عن بومة رمز الحكمة، وكتب تحته بالفرنسية والعربية "يوجد بالمكتبة أكبر مجموعة من الكتب والمجلات الحديثة". المكتبة هادئة تماماً، أتأملها من خلال زجاجها الشفاف لأرى الكتب المرتبة بشكل منسق دون اتخام، بينما تعلو جدرانها العديد

من اللوحات التشكيلية المختلفة، وقد رسم إمضاء صاحب كل لوحة في أحد جوانبها. كان الميدان هادئاً لا تشغله سوى حركة بعض المتقنين الذين يشغلونه ذهاباً وإياباً، على مقهى وبار ريش المصطخب بالحياة أرى نجيب محفوظ جالساً في أحد أركانه المظلة على الشارع وقد التف حوله العديد من المتقنين، أرى منهم جمال الغيطاني وخيري شلبي وغيرهم، إلا أن الرجل الكهل الذي يعرف نواياي جيداً يجذبني سريعاً حتى لا أخلط بهم. في ميدان الإسماعيلية الكبير الذي يشبه الحديقة الضخمة يقول لي الرجل:

- هذا ما تطلقون عليه ميدان التحرير في وقتكم، وهو أكبر ميادين المدينة البالغ مساحته عشرين فداناً.

أندesh للرقم الذي أطلقه الرجل، الميدان عبارة عن مستطيل غير مكتمل بينما يتصدره مبني المتحف المصري ببهائه الكائن منذ القدم، وقد تقدمته حديقة ضخمة بها من الأشجار والزهور النادرة ما لا يحصى، يشغل الضلع الثاني للمستطيل ثكنات قصر النيل التي كان يشغلها الجيش الإنجليزي، تقع عيناى على مقهى ايزافيتش ذي الشهرة الواسعة برواده الكثيرين من المتقنين المختلفي المشارب، أعرف جيداً أن هذا المقهى القديم لم يعد له وجود في زمني بعد أن تحول إلى أكشاك لبيع السجائر وواجهات لبيع الخردوات وتصوير المستندات، يا لذلك الزمن الذي يقضي على كل شيء، في أحد أركان الميدان تقع عيناى على مسجد ضخم فيقول لي الرجل

وكأنه ينتظر سؤالاً:

- إنه جامع الشيخ العبيط الذي بُني على أنقاضه تماماً مسجد عمر مكرم في وقتكم.

أسير في الميدان مفتوناً بما أراه من خضرة شاسعة تراها أينما اتجهت عيناك، أرى الرجل وقد بدأت تبدو على وجهه علامات الضيق. أسمعته يقول:

- ألم تشعر بالتعب من هذه الجولة الطويلة؟

أقول متمسكاً بالأطفال:

- ليس بعد، ما زال أمامنا الكثير من الوقت والأماكن التي أود رؤيتها.

- إنني لم أطلب منك إنهاء رحلتك يا ولدي، كل ما هنالك أنني أرغب في قسط من الراحة نستكمل بعده رحلتك الأثيرة تلك.

أطيع الرجل صامتاً. أقول له:

- لم لا نحتسي كأسين في اكسلسيور؟

يوافقني الرجل مبتسماً، كنت قد أشرت عليه باكسلسيور بخبث حتى أمر مرة أخرى من ميدان إسماعيل باشا فأمتع بصري بما فيه من متعة بصرية، كان مقهى ريش قد لفظ رواده ليأتي مكانهم رواد آخرون في دائرة لا تنتهي، نمر من أمام سينما راديو التي أغلقت أبوابها في زماني والكائن أمامها مقهى سفنكس، أندهش لرؤية نجيب محفوظ وحواريه جالسين على المقهى، منذ فترة وجيزة رأيتهم على ريش، هل كان يخيّل لي أم أن هذا المكان له قانونه الخاص الذي يتغير بتغير الوقت كما

سبق أن قالت لنا؟ يجذبني رفيقي متعللاً بآلامه التي تداهمه في مفاصله، ندفع باب اكسلسيور الزجاجي فينبعث منه صرير خافت عند فتحه، هدوء أسر يعبق المكان حتى لكأنك انتقلت إلى عالم آخر تماماً داخله، أتأمله بواجهاته الزجاجية اللامعة بألقها الدائم، كان المكان ذو أناقة خاصة تجتذبك بينما تتوسطه نافورة جميلة ينبعث منها خرير الماء المتواصل في متوالية هادئة لا بد أن تجعل أعصابك المشدودة تسترخي بينما تحيطها أصص صغيرة زرعت فيها نباتات ظل جميلة، تحمل الجدران في أحد أركانها لوحة نحاسية حُفرت عليها عبارة "محظور تقديم الخمر لأقل من 21 سنة ولا تقدم قبل الساعة الحادية عشر صباحاً". أنتحي وصاحبي إحدى الطاولات المطلّة على شارع سليمان باشا، أتأمل الشارع من خلف الواجهة الزجاجية اللامعة، يأتينا النادل ذو الملابس الأنيق منحنيًا في شئ من المسرحية المهدبة، يطلب رفيقي كأسين من النبيذ الأحمر المعتق فأوافقه على طلبه، كنت في حاجة قصوى إلى مثل هذا النبيذ الآن، أرشفه هادئاً رشفات متتابعة بينما ذهني مشغولاً في ذلك الزخم العتيق الذي رأيته منذ بضع ساعات. أسائل الرجل هادئاً:

- لكن أين كل هذه المكتبات العامرة التي كانت تزخر بها وسط البلد؟

- أغلبها تحول إلى محلات لبيع الأحذية والملابس بالإضافة إلى المطاعم ذات الطابع الأمريكي.

أنظر للرجل خجلاً منه، يا للوقاحة، كل هذا الجمال يذوي هكذا بكل بساطة؟ أتتأسى وجوده تماماً متأملاً إحدى الفتيات

السائرة خلف واجهتي الزجاجية، في عينيها ألق ذو تناقض لوني
أأخذ يتشابه إلى حد بعيد مع عينيّ لينا. أقول للرجل:

- كيف سنواصل رحلتنا؟

الصمت الطويل الذي لاقاه سؤالي للرجل جعلني ألتفت
نحوه، إلا أن صدمة قصوى جعلتني أرتد في مكاني، أنظر
لطاولتي الفارغة إلا منّي مندهشاً، لم يكن للرجل أثر على
الإطلاق، هل هذا ممكن؟ لقد كان يتحدث معي للتوّ، أيكون قد
هرب منّي متلصصاً؟ ولكن متى فعل ذلك وما زال رجع حديثه
يتردد في أذني؟ أتأمل طاولتي الخاوية إلا من كأسي الوحيد،
وأين ذهب كأسه؟ أيكون قد أخذه خارجاً؟ بالتأكيد كنت سأراه إذا
ما خرج من خلال الواجهات الزجاجية المميزة للمكان، أشير
لللنادل متلهفاً:

- أين ذلك الرجل الذي كان يشاركني الطاولة؟

يقول مبتسماً:

- أي رجل سيدي؟

بسمته المرسومة على وجهه وكأنها خلقت معه منذ الأزل
تزيدني غيظاً، يرتفع صوتي قليلاً مما جعل الأنظار تتجه إليّ:

- ذلك الرجل الذي دخل معي، لقد كان يحدثني منذ برهات.

يرد الرجل بتأدب:

- لقد دخلت وحدك سيدي منذ ما يقرب من الساعة، ولم يكن

معك أحد قط، إنك تجلس وحدك منذ دخلت.

أقول محاولاً الهدوء مشيراً إلى كأسي:

- أليس هذا نبيذ أحمر معتقاً؟

- بالتأكيد سيدي، هل فيه شيء لا يروقك؟

- ألم يطلبه منك الرجل الذي كان يرافقني؟

يقول الرجل متردداً، وقد ظنني أهذي أو أن الخمر قد أثملتني:

- عفواً سيدي، إنك أنت الذي طلبته ولم يكن يرافقك أحد.

يقولها الرجل تاركاً إياي مبتعداً بينما رأسه تتلفت نحو يمين الفينة والأخرى، لماذا ينظر إليّ هكذا وكأنني معتوه؟ ذلك الوقح يذكرني بالآخر الذي كان في مقهى متاتيا، أتأمل المكان حولي، كانت الأشياء تتشكل، تتحول، تتبثق لتأخذ بعداً آخر غير ذلك الذي كانت عليه منذ قليل، ها هي النافورة البديعة التي تتوسط المكان تذبذب منزوية وكأنها إحدى النباتات التي في طريقها للزوال، تختفي النافورة تماماً بعد برهات، تتبدل النباتات الظلية فجأة إلى زهور ونباتات مصنوعة من البلاستيك، يا للغرابة، شارع سليمان باشا يأخذ شكلاً مختلفاً هو الآخر كي يزدحم بالسيارات ذات الماركات الحديثة في ازدحام مروري خانق. هل غادر ذلك الزمن بهذه البساطة؟ كانت الأشياء تأخذ بعدها الخاص بها بينما عينايت تتلفتان حولي حائرتين محاولتين التمسك بما يزول حولها بينما رأسي يضج بالعديد من التساؤلات القاسية.

اكسليسيور

لم أكن أدري أن لينا لها مثل هذا الحضور إلا في تلك اللحظة التي انفلتت فيها من خلال الباب الزجاجي دافعة إياه بحنو كي ينفلت منه صوت واهن لا تكاد أن تسمع له شيئاً، لوجودها المادي في المكان عبق أثير وكأنها ذات روائح خاصة تميزها، ينتشر شذى عطرها السري في أرجاء المكان فتملأه بهجة، أنتسم شذاها بعمق فاتحاً صدري عن آخره بينما أراها تخطو على الأرض قادمة نحوي، بقدر البهجة التي ملأتني لمرآها إلا أنني غرقت في تساؤلاتي، أهى الثامنة مساء الآن؟ أنظر في ساعتي لأتأكد من الوقت، أكون الرجل قد اختفى لأنه علم بموعدى مع لينا؟ ولكنني لم أشعر بالوقت على الإطلاق، أفيق من تأملاتي الشاردة. تقول وقد أخذت مقعدها المقابل لي:

- هل تأخرت عليك؟

- على الإطلاق.

- منذ متى وأنت تجلس هنا؟

- لست أدري.

أقولها حائراً فتنظر إلى مندهشة. تصمت فترة لتقول:

- هل هناك ما يسوؤك؟

ساخراً:

- من الأفضل صياغة سؤالك هكذا.. هل هناك ما يرضيك

حولك؟

تنتهد زافرة:

- يا لتلك الحالة المسيطرة عليك من عدم الرضا.. ألا يمكنك التخلي عنها بعض الوقت؟
- وإذا فعلت فماذا يبقى لي؟

تتجاهل تساؤلي عن عمد مشيرة للنادل الذي ينحني لها في احترام بينما عيناه مركزتان عليّ، يبدو أنه متعجب من كون هذا الملاك يشاركني طاولتي بعد ذلك الحوار الذي دار بيننا منذ دقائق. تطلب زجاجة بيرة لتقول لي:

- هل تابعت مؤتمر القمة العربي اليوم المنعقد بشأن العراق؟ لا مبالياً:

- لم أفعل، وما الفائدة؟

- لم هذا التحامل؟

- لست بمتحامل، ما هو الجديد الذي يقدمونه أو يفعلونه منذ هزيمة 1948؟

شاردة:

- حديثك فيه شئ من الصدق، انه نفس الموقف الذي حدث اليوم.

بقرف:

- هذا لأنني أستقري الواقع والتاريخ بحيادية تامة.

أتناول كأسي لأجرعه دفعة واحدة، أتأملها بينما ترشف كأسها وقد تركت شفّتيها الممتلئتين ذات اللون القرمزي لونهما القاني على طرف كأسها، أرغب رغبة قصوى في تقبيلها.

أقول لها:

- اطلبي من ذلك النادل زجاجة أخرى من البيرة.
مندهشة:

- ولم لا تطلبها أنت؟
- يظنني مجنوناً.

تتطلق ضحكتها المججلة الرائقة ذات الانسحاب البطيء
لتملأ المكان بهجة، يلتفت إلينا الآخرون متأملين إياها في عالمها
المادي الحر، يترجرج نهذاها بانسيابية ساحرة مع ضحكتها
المنطلقة فيزيداني رغبة، أتأملهما في حركتهما الصاخبة وقد
تحررا من أسر سوتيانها الضيق الذي كان يخنقهما، تطلب من
النادل زجاجة بيرة لتقول باسمه:

- يبدو أنك قد أتيت شيئاً من أفعالك الصببانية فضنك مجنوناً.

أتأمل عينيها الواسعتين بذلك التضاد الحاد بين الأبيض
والأسود فأفتتن بهما، كانت تعرف ما لهما من سحر غامض
على فنتركني أتأملهما في نعاسهما الراغب الداعي. أقول بعد
فترة:

- ما الذي حدث اليوم في ذلك المؤتمر؟

تقول وقد استعادت جديتها:

- ظاهرياً كما قد يبدو فقد انتهت القمة بمجموعة من القرارات
الفاعلة.

مستزيداً:

- وكما يبدو لنا من خلال استقراء العمق؟

أراها تطرقع بإصبعيها في الهواء دلالة أنه لا شيء يذكر
يستحق التعليق، إلا أنها تقول مستطردة:

- كالعادة.. اختلف العديدون مع بعضهم؛ فممثّل دولة الكويت
بدا وكأنه عدو لا شقيق؛ فجاء من أجل زيادة النار استعاراً
ومحاولة تأليب الجميع على النظام العراقي وكأنه يرحب
بالتحالف الأنجلو أمريكي ضد العراق، والأغرب قوله أن
العراق ليست ملتزمة بما تم الاتفاق عليه بعد حرب الخليج
الثانية، وأنهم يهينون دولته في وسائل إعلامهم.

أذكر البعلي بوجهه وقد احمرّ بينما الكلمات تنطلق من فمه
بلا تنظيم:

- لست أدري لم تدافع عن صدام بمثل هذا الشكل الغبي رغم
عدم رؤيتك لأسلوب حكمه، أسألني أنا إذا لم تكن تعرف، أنا
الذي عشت هناك عدة سنوات في ظل نظام مخابراتي قاهر
تخشى فيه من مجرد الالتفات أو الحديث إلى نفسك وإلا تم
اختطافك إلى جهة غير معلومة كي يتم التمثيل بك أو
إعدامك، إن صورته في كل زاوية تراها أينما اتجهت عيناك
ليكون رقيباً عليك في كل أوقائك.
أقول مقاطعاً:

- أعرف كل هذا، وأعرف أيضاً ما يحدث للأكراد على يديه،
بل أعرف أن جميع أوطاننا العربية تعيش في هذا الذل
والهوان من قبل حكامها وكأنه قدر علينا ذلك، ولكني لا
أدافع عنه مثلما يخيل إليك، بل أنا رافض أن تتدخل دولة

أخرى خارجية وبعيدة عنا مثل أمريكا أو بريطانيا كي
تصح الأوضاع القائمة عندنا، فالتغيير لا بد أن يكون
بإرادتنا نحن.

أعود إلى لنا لأقول مبتسماً:

- ما حدث من ممثل الكويت شيء طبيعي.

تقول مكمل:

- إلا أن ذلك الذي حدث من الكويت لا يعد شيئاً في مقابل ذلك
الخلاف الذي وقع بين القذافي والعاقل السعودي.
أضحك قائلاً:

- القذافي، ذلك الرجل أحبه كثيراً لا لمواقفه ولكن لأنه يمتلك
كاريزم خاص يجعل كل من يشاهده أو يستمع إليه يحبه
منجذباً إليه.. وما الجديد الذي صدر منه اليوم؟

- تحدث هو الآخر عن حرب الخليج الثانية، ولكن بشكل أكثر
عقلانية؛ فذكر أنه أجرى العديد من الاتصالات مع العاقل
السعودي إبان الحرب الثانية لمحاولة لم الشمل والحيلولة
دون وقوع الحرب على العراق، ثم أخذ العاقل السعودي
على موقفه بالسماح للقوات المتحالفة كي تتخذ من أرضه
ركيزة أساسية للانطلاق في حربها، بل ولجوءهم للولايات
المتحدة كي تحميهم من بطش صدام بدلاً من الالتجاء إلى
الأسرة العربية.

- رغم عدم موافقتي لمواقف القذافي المندفعة إلا أنني أراه قد
غرر به سياسياً من قبل عبد الناصر وسياساته القومية ذات
الطابع الوهمي، فالرجل هنا يتعامل وكأنما الأعمال بالنيات

على الرغم من أنها ليست هكذا في عالم السياسة ذي الطرق
الدبلوماسية الملتوية.

تقول ضاحكة:

- لبيتك رأيتهم اليوم وهم يتشاجرون كالأطفال في إحدى
الحواري الضيقة، فهذا يكيل الاتهامات وذاك يسب الآخر، إلا
أن ذكاء القذافي جعله يلتزم بعضاً من حدود اللياقة بعدم الرد
تاركاً الأمر للرئيس كي ينوب عنه. أتأمل الشارع الخارجي
وقد مر من أمامي أحد الفتيان مطوقاً فتاته. أتأملهما لأقول
ساخراً:

- بعد ذلك تحاولين توجيه انتقاداتك لي بأنه ليس هناك ما
يرضيني حولي؟

- على الأقل إذا لم يكن هناك ما يرضيك فهناك ذلك الموقف
المشرف للرئيس بشار الأسد الذي كان يتحدث وكأنه قد
عرك الحياة بكل خفاياها حتى لكأنك تظنه عاش ألف عام.

تقول منبهرة:

- يا لذلك الرجل في مواقفه الثابتة ذات الرؤية المستقبلية
الواضحة، انك تراه وهو يتحدث بلباقة وثقة وتنظيم متكامل
في الرؤية والفكر فيحدوك الأمل بأنه إذا كان الزعماء العرب
هكذا مثله فلا بد سيكونون ذات يوم شيئاً ذا شأن.

- سيدتي، إن الرجل على قدر غير هين من الثقافة تجعله بمثل
هذا التنظيم والرؤية العميقة لخفايا الأمور.. صدقيني إنني
كلما رأيته يتحدث كلما زاد إعجابي به.

أقهقه ضاحكاً وقد انفلتت منى ضحكة دون رغبتى، تنظر
لينا متسائلة.

أقول مقاوماً رغبتى الشديدة في الضحك:

- عذراً، ولكنى أتخيلهم دائماً حينما يستمعون إليه فأراهم مجموعة من الطلبة الفاشلين الذين يحاول معلمهم جاهداً كي يجعل منهم رجالاً حقيقيين فيذهب مجهوده قبض الريح.

تتطلق ضحكاتها المجلجلة فأحاول التعلق بأذيالها ذات الانسحاب الأخاذ إلا أن عدم ماديتها يعينني حيلة، تقول وقد ارتسمت على ملامحها الجميلة معالم الحزن:

- يا لهذا الوطن المهان.

أرد غاضباً:

- أي وطن هذا الذي تتحسرين عليه وأي وطنية تلك؟ لينا، لست أدري حقيقة كيف يخرج مثل هذا الاعتقاد الأحمق منك على الرغم من ثقافتك الواسعة وإحاطتك بصغائر الأمور وكبيرها.

مندهشة:

- هل صار فرضاً على المتقنين التخلي عن وطنيتهم؟

- أي وطنية تلك التي ما زلت تتمسكين بأذيالها؟ أترين حولك ما يدعو لك لذلك؟

- لماذا تحاول دائماً الربط بين الوطن والسلطة؟

- لأن الوطن هو الذي أتى بتلك السلطة وهو الذي أعطاها الحق في كل ما تفعله.. أعتقد أنه لو كان كلامك صحيحاً لما انتحرت أروى صالح بعد أن تملكها اليأس تماماً من تغيير أو فعل أي شيء على الإطلاق، وهو ذات السبب الذي جعل

مخرجاً عظيماً كان مناضلاً من مناضلي السبعينيات مثل
رضوان الكاشف يترك تلك الحركة الواهمة التي لا تغني ولا
تثمن من جوع ليتجه إلى السينما كي يصب فيها همه.

يخيم علينا الصمت بطنينه القاسي الذي يكاد أن يمزق
طبلتيّ أذنيّنا، ننتبه على صوت الباب الزجاجي وقد دفعه أحدهم
بقوة ليرتد مغلقاً مرة أخرى، خيل إليّ أن الباب قد تحطم ليصير
شظايا صغيرة من أثر الدفعة، ننظر باتجاه ذلك الداخل المتجه
وقد انسحب غضبنا الذي كان في طريقه إلى الزوال لترسم
على ملامحنا آثار انقباض مندهش، ما لهذا الرجل العجيب ذي
الأطوار العجيبة؟ كان الرجل الداخل ذو لحية كثة، حليق
الشارب بينما يرتدي بدلة كاملة لا تتناسب على الإطلاق مع
ملامحه المتجهمة ذات الحاجبين المقطبين، خيل إليّ أنه مقدم
على شجار ما بهيئته المثيرة للانقباض، كان يسحب في يده
امرأة يعلوها السواد من رأسها حتى أخمص قدميها، أحاول
رؤية عينيّ المرأة إلا أن الوشاح الأسود الذي ترتديه يغطي كل
جزء منها حتى أنه لم يكن فيها ما يرى، أبادل ليننا النظرات
الداهشة، لم نكن نصدق ما نراه، حتى هذا المكان؟ أقول هامساً:

- ما هذا؟

متحيرة:

- لست أدري، منذ متي يأتي هؤلاء الناس إلى مثل هذه
الأماكن؟

ساخراً:

- يبدو أنهم يحاولون بشتى الطرق إزاحتنا من جميع أماكن
تجمعنا.

تقول لنا بينما عيناها تتابعهما:

- أنظر متأملاً.. ألا ترى أن وجودهم في مثل هذا الجو يكاد يكون شاذاً؟

بعقلانية:

- الشذوذ ليس في ارتيادهم مثل هذه الأماكن، فاكسلسيور ليس مجرد بار كما تعرفين، بل هو مطعم أيضاً، ولكن الشذوذ الحقيقي الذي أراه، هو مناقضة سلوك هؤلاء الناس مع معتقداتهم.

- ماذا تقصد؟

- تأملي المكان حولك جيداً، فباستثناء هذين اللذين دخلا الآن ستجدين العديد من الفتيات اللاتي يغطين شعورهن تحت مسمى الحجاب إلا أنه بالرغم من ذلك فإن ملابسهن ذات السراويل الضيقة والبلوزات الأكثر ضيقاً تتناقض مع ما يرتدينه على رؤوسهن، بل والأدهى أنك ستلاحظين الغالبية العظمى منهن يحرصن على إظهار خصلة ما من شعورهن مصبوغة بدرجات الأصفر المتفاوتة.

تأمل لنا المكان حولها للتأكد من صدق كلامي. تقول

بهدهوء:

- أتصدق أنني لم ألاحظ هذا التناقض من قبل؟

- هذا لأنك لا تحاولين النظر إلى الأشياء بعمق كي تحاولي ردها إلى أصولها، فأنا لا أرفض تدينهم ولكني أرفض التمسح بأهداب الدين من أجل المصالح الشخصية، فمثلاً تلك

التي ترتدي البنطال الضيق والبلوزة الضيقة لماذا تحاول
خنق نفسها بالحجاب على الرغم من أن سلوكها ومنظرها
يدلان بصدق على عدم اقتناعها به؟

أرى عينيّ لينا تنتظران نحوي منتظرة جوابي على تساؤلي
فأقول:

- المبرر الوحيد عندي هو أن جهامة الخطاب الديني الآخذ في
التصاعد هو السبب الرئيسي في مثل هذا المسلك، فهؤلاء
الفتيات يخشين المجتمع المتبدل يوماً بعد آخر، بل يخشين
سلطة الآباء الذين يرون في الحجاب عفة وسلوك قويم على
الرغم من فعل الفتيات لما يرغبه سواء به أو بدونه.
تقول ساخرة:

- لعل هذا أهون شأنًا مما نراه في المصاييف كل عام.
- هذا الذي تربنه في المصيف شأن آخر، فما يثير دهشتي
الفعلية هو كيف يتأتى لهؤلاء الناس الرغبة في الذهاب هناك
على الرغم من معرفتهم الجيدة بأن مثل هذه الأماكن لا تخلو
من العري القبيح على حد قولهم، بل والأدهى من ذلك حينما
ترين إحدى تلك النساء وقد هبطت بملابسها الكاملة أمام
الجميع في مياه البحر كي تصعد وقد التصقت ملابسها بكل
ثنايا جسدها وكأنها عارية تماماً.
- يا لهذا التظاهر الكاذب.

- دعك من هذا لينا، إن ما يثير دهشتي الفعلية هو ما نراه اليوم
من رواج عجيب للكتب الدينية وكأنما الناس كلها قد صارت

متدبنة، إلا أنك إذا نظرت للأمر بشكل أكثر عمقاً لوجدت أن
التدين اليوم قد صار ظاهرياً وكأنه مجرد موضحة جديدة
يحاول الجميع تقليدها دون النظر إلى فحواها.
تقول شاردة:

- أذكر ذات يوم وقد ركبت الباص متجهة إليك، كان السائق
يستمع إلى أصالة التي يتعالى صوتها الملائكي هادئاً في
صوت خفيض لا يكاد يسمعه سواه إلا أن أحد الركاب طلب
منه أن يطفئ الكاسيت كي يعطيه أحد الشرائط المسجل عليها
إحدى تلك الخطب التي يسمعونها فما أن رفض السائق إلا
ونار ذلك الرجل ذو اللحية ليطلب منه إغلاق الكاسيت تماماً.
مبتسماً:

- ما الجديد في ذلك؟

تتناول كأسها قلقة وكأنما هناك شئ ما، أتأمل عينيها فأذوب
فيها رغبة، تستقر يدي برغبة يقينية على يدها المكتنزة ذات
الأصابع المسحوبة بهدوء فتتظر نحوي متسائلة. أقول بعشق:
- شوقي إليك متزايد.

بفتور:

- لست في حالة تسمح الآن بتبادل العشق.

تقولها وقد سحبت يدها الكائنة من تحت يدي. أهمس
متسائلاً:

- أهنأك ما يسوؤك؟

- تلك المرأة المتشحة بالسواد تكاد أن تخفني.

- ماذا بها؟ أأهانك في شيء؟

غاضبة:

- بالطبع تهينني، حتى أنني أشعر بإهانتها توجه إلى كالصفحة.

ضاحكاً:

- أتهدين؟

- لست أهذي أيها المتفلسف، أما تعي معنى ما ترتديه تلك

المرأة؟ إنه دليل قاطع على عدم احترامها لكونها امرأة.

- كيف ذلك؟

- المعنى المباشر الذي يصل إلى ذهني من طريقة ملابسها هذه

أنها تنظر لنفسها وغيرها من النساء بشيء غير قليل من

الدونية.

- زبديني فهما أيتها الخلاسية الفاتنة.

- ليس هذا وقت المزاح.. إنها حينما تفعل ذلك فهي لا ترى في

نفسها وفي أبناء جنسها سوى أنها مجرد أداة لتفريغ رغبات

الرجل.. أي أنها ليست سوى شيء للمتعة فقط يتناولها الرجل

وقتما شاء ويعرض عنها حينما يزهدا دون احترام لكيانها

كأنثى ذات ثقافة وفكر خاص.

مفكراً بعمق:

- أترين أنني لم أنتبه لتلك الإهانة سوى الآن؟

- إنها لا ترى في ذاتها إلا كونها مجرد عورة مثيرة لغرائز

الرجل ولا بد من سترها حتى لا تثير فيه حيوانيته الكامنة،

وكأنما الدين قد تم اختزاله بالكامل في ذلك الانفجار الجنسي.

أصمت متأملاً كلام لينا الذي بدا مقنعاً إلى حد بعيد، هل من المعقول أن تنتظر المرأة لذاتها مثل هذه النظرة المتدنية؟ أشعر برغبة حمقاء في إحراق الجميع من حولي، أحاول الخروج من هذا الشعور الذي بدأ يسيطر علىّ بالحديث مع لينا، ولكن ماذا أقول لها وقد نفذت حصيلتي اللغوية تماماً فلم أعد أعرف ماذا أقول؟ أبحث في رأسي المصطخب بالعديد من المتناقضات عن موضوع ما يصلح للحديث. أقول حائراً:

- كيف كان يومك في العمل؟

بحيادية:

- كالعادة.. لا جديد.

تبدو وكأنها لا ترغب في الحديث، أجرع كأسي عن آخره لأقول:

- لقد تشاجرت مع رئيس التحرير اليوم.

باهتمام بدأ يبدو على ملامحها لتتقلص ملامح الفتور:

- لم؟

- قدمت مقالي الجديد له اليوم عن فيلم "النوم في العسل" إلا أنه استدعاني ليطلب مني تخفيف حدة النقد السياسي المضمن فيه.

- ثم؟

- لا شيء.. حاولت مناقشته في فنيات العمل وتوضيح أن الفيلم قال ما قلته أنا تماماً، وإن كان بشكل غير مباشر إلا أنه لم يحاول أن يفهم.

- ما زلت تصر على انتقاد السياسات المتهرئة من حولك.
كمن ينكر تهمة:

- أنا لم ألجأ إلى ذلك عن عمد؛ ولكن موضوع الفيلم هو الذي دفعني إلى ذلك.. فما كان مني بعد إصراره على غبائه المحكم إلا أن مزقتها لألقيها في وجهه.

تتطلق ضحكتها الصافية لتملاً أركان المكان، أشعر وكأنها تعيد الحياة إلى العديد من الأشياء الجميلة التي انزوت منذ عهد بعيد، أتعلق بأذيال ضحكتها وقد بدا لي في قسماتها المرححة وجه الله فأمتلئ بهجة. تقول بعد فترة تأمل:

- أيها المجنون، كيف تفعل ذلك؟

- ماذا كنت ستفعلين في مثل ذلك الموقف الغبي؟

تحاول الحديث حائرة إلا أنها تنتظر لي وقد أعيتها الحيلة لتقول:
- لا شيء.. مثلك تماماً.

- بالتأكيد مثلي.. فليس هناك من يحترم كلمته التي يكتبها لا يقدم على مثل ما أقدمت عليه.

تقول شاردة:

- ها هو حبل آخر ينقطع بينك وبين الآخرين.
هازناً:

- بل قل لي ها هي جريدة جديدة أخسرها وأخسر التعامل معها.
- ماذا؟ ألم تكن مقيدا في تلك الجريدة؟
أضحك مجلجلاً:

- لينا.. ألا تعرفين أنني غير مرتبط بأي جريدة على الإطلاق؟

- لم أكن أظن ذلك.
- عزيزتي، إن عملي مع جميع هذه الدوريات يعتمد على المكافأة ليس إلا.
- لم يكون ذلك بالرغم من أن قدرك ليس بهين؟
- تلك حقيقة أعرفها، ولكني أنا الذي أرفض القيود.
- أية قيود تلك؟
- قيود الوظيفة؛ فمعنى أن أكون موظفا في جريدة يعني بالنسبة لي أن ألتزم بمواعيد خاصة للتواجد فيها، هذا فضلاً عن أن رئيس التحرير وقتها سيكون له الحق في مطالبتني بالجديد مما أكتبه، ولا بد أن أسلم مادتي في موعدها المحدد لها، وأنا لا أحب ذلك؛ فأنا أكتب وقتما يحلو لي وأترك كتابتي وقتما أشاء.. لينا، الكتابة ليست مجرد وظيفة، بل هي حياة خاصة لها قانونها الخاص...
- كان كلامي مقنعاً لها إلى حد ما فقالت متسائلة:
- ماذا ستفعل معه؟
- لا شيء، فليذهب إلى الجحيم هو وجريدته.
- إنك لا تعرف قدر نفسك.
- مؤكداً:
- بل لأنني أعرف قدر نفسي وقدر ما أكتبه فأنا أفعل ما يترأى لي من قناعات.
- ترسم على محياها علامات العشق الجميل لنقول:
- كم أحبك.

يا لتلك المرأة، لماذا تصر دائماً على ذلك الحب بالرغم من
أني لم أقل لها يوماً كلمة حب واحدة؟ أتحاول محاصرتي بحبها؟
إنني لم أحاول خداعها من قبل، أذكر ذلك اليوم الذي تشاجرنا
فيه لأنني صارحتها بعدم حبي لها، ولكن الأمر كله مجرد حاجة
ماسة لها في كل أوقاتي، أذكر أيضاً أنها في ذلك اليوم كالت لي
الاتهامات بالأنانية وتبذل المشاعر، أذكر أن البعلي قد تدخل
للإصلاح بيننا وأنها قد عادت إلى صفوها القديم بعد عدة
محاولات فاشلة، لم أجرو على تعكير صفو لحظتها الآنية
فالتزمت الصمت، كنت قد فرغت من احتساء زجاجتي بالكامل
فطلبت منها أن تأمر النادل بزجاجة جديدة، تقول بعد أن جاءت
الزجاجة بينما عيناها تتابعان النادل الذي ينظر إلى شذراً:

- ماذا فعلت مع هذا الرجل كي يظنك مجنوناً هكذا؟

لم أكن أدري ماذا أقول لها، شملتني الحيرة فألجمت لساني
عن النطق، أقول لها عن رحلتي في عمق الزمان والمكان؟ تلك
الرحلة التي ما برحت لا تفارق مخيلتي المفتونة بها؟ كانت
كحلم طويل جميل طالما تقت للحياة فيه إلا أنه ما أن تراءى لي
إلا وخبا وكأنه لم يكن، يتراءى لي الرجل الكهل الذي كان
يشبهني إلى حد بعيد، أحاول الإشارة له، الإتيان بأية لفظة تثير
انتباهه نحوي، كان يسير على الطوار المقابل غارقاً في عالمه
الخاص، لا بد أنه في انتظاري الآن، أرى رأسه المنكسر أرضاً
وكانه يبحث عن شيء ما قد فقده لتوّه. أويكون حزيناً لفراقي؟
ولكنه هو الذي بدأ تلك الوحشة التي تتشب بأظافرها بيننا، لم

أطلب منه الانسحاب المفاجئ الذي كاد أن يصيبني بالجنون،
أدقق النظر في خطواته المتتائلة فيبدو لي وكأنه قد هرم أو أنه
قد مرت عليه قرون مديدة في مشيئه هذه، أحاول مناداته إلا
أنني ما كدت أن أفعل إلا ورأيتَه قد بدأ يتماهى متشكلاً إلى اللا
شيء. أدعك عيني بقوة ضاغطاً إياهما، أغمضهما مستقيماً ظاناً
أن الأمر مجرد وهم عظيم، إلا أن الحقيقة الراسخة على
صدري كانت واضحة جلية؛ فالرجل الذي كان يسير أمامي الآن
غارقاً في تأملاته قد اختفى تماماً وكأنه لم يكن، تجول عيناى
الهائمتان في عينيّ لينا تلك اللتان ما زالتا في انتظار إجابتي
على تساؤلها، أسبح في عوالم عينيها الأخاذتين فأشعر بذاتي وقد
شارفت على الغرق فيهما، أراها وقد أسبلت جفניה وكأنها على
وشك السبات، هذه المرأة متممة بي لا شك في هذا، لا أنكر أنني
أتوق إليها ليل نهار، ولكني لست أدري حقيقة كنه هذا التوق
الشديد لها، أروي لها ما كان اليوم مع ذلك الكهل العجيب الذي
اختفى في ظروف غامضة، كنت أشعرن وكأنني غارق في
تأملاتي بينما لساني يلهج بالذكريات المضربة التي عشتها اليوم،
يهيأ لي أنني أحداث ذاتي وقد انتفى اكسلسيور تماماً من محيطي
الخاص خافياً معه رواده العديدين ولينا وكل شيء. أذكر لها
الأتبيس أبو دورين الذي جاء به الإنجليز وقد شملتني بهجة
غريبة وكأنه قد تمثل أمامي، أرعد غضباً حينما أذكر لها ذلك
الإنجليزي الوقح الذي تعامل مع داعرة كلوت بك بكل صفاقة،
ما أن وصلت بذكرياتي ذات البهجة الزمنية إلى اختفاء الرجل

في اكسليسيور إلا ورأيت عينيها ارتسمتا بعلامات الدهشة، كانت تنظر لي نظرة تكاد أن تتطابق تماماً مع نظرتي النادلين في مقهى متاتيا واكسليسيور، حتى أنت يا لينا؟ ما لهذه المرأة تنظر إليّ هكذا مأخوذة وكأنني مجنون فعلي؟ انتبهت الآن أن نظرتها كانت تتشكل بالاندهاش غير المصدق كلما استرسلت أكثر في روايتي التي ما أن انتهيت منها إلا وقد استقرت عيناها على هذه النظرة العجيبة، يهبط علينا الصمت الثقيل الذي أشعره شديد الوطأة على صدري المختق، أراها تبحث عن علبة سجاجرها وقد بدا عليها الارتباك، حينما تجوس يدها باحثة بلا أمل داخل حقيبتها الصغيرة التي تتناسب إلى حد بعيد مع رقة جسدها أراها ترفعها لتفرغ محتوياتها بالكامل على الطاولة، أتأملها بينما تضع السجارة بين شفتيها بينما تشعلها بقداحتها مرتبكة، تقول بعد فترة:

- أنت ثمل؟

يا الله، حتى أنت لا تصدقيني؟ إذن فذلك النادل له الكثير من العذر وقد ظنني معنوها ما دمت أنت الأكثر قرباً إلى نفسي غير مقتنعة بروايتي التي عشتها بكل ما فيها من حياة. أتساءل مندهشاً:

- أتكذبنني؟

حائرة:

- لست أكذبك، ولكن روايتك هذه لا عقلانية على الإطلاق.

- معنى هذا أنني قد اختلقتها؟

- ليس بهذا المعنى تماماً.. قد يكون شجارك مع رئيس التحرير متضامناً مع احتسائك للكثير من الخمر أديا بك إلى توهم تلك القصة العجيبة.

- معنى كلامك هذا أنني أهذي.

- صدقني، لست أحاول توجيه أية إهانات لك أو التشكيك في مدى يقظتك، ولكن ألا يمكن أن تكون قد قرأت كل هذا في أحد كتب التاريخ، ولأن توقعك الشديد إلى الجمال الذي كان يسيطر عليك فلقد تراءى لك كل هذا؟
غاضباً:

- أنت على دراية تامة أنني لا أميل إلى قراءة التاريخ، كما أنك على علم تام بأنني لست مجنوناً.
تقول وقد ارتفع صوتها:

- لماذا تحاول استفزازي باعتقادك أنني أتهمك بالجنون؟
ارتفاع صوتها قليلاً جعل العديدين يوجهون نظراتهم نحونا،
تنتبه لما حدث فتحاول اخفاض صوتها قائلة:
- آسفة.

- إذن فالام ترمين؟

- لست أدري، ولكن حكايتك تلك لا يمكن أن يقتنع أحداً اللهم إلا إذا كان الأمر مجرد حلم من أحلام اليقظة قد تراءى لك فعشت فيه حتى النخاع.. ولا تحاول معاودة اتهامك لي؛
فمثل هذه الأحلام تتراءى لنا جميعاً.

لم أقتنع بحديثها المتشكك؛ فكل ما لمستّه اليوم كان حياة كاملة حقيقية إلا أنني شعرت برغبة قاهرة في إنهاء الحديث

بشأن ذلك الأمر فقلت لها مخادعاً:

- ربما، ولم لا؟

تتلامس قدمانا أسفل الطاولة فأشعر بدبيب الرغبة قد بدأ يسري في جسدي، أصدع بطرف قدمي على ساقها مقترباً من فخذها الممتلئ، تبتسم وقد اكتسب وجهها حمرة قانية، تقول وقد بدا في صوتها ارتعاش الرغبة:

- حتى هنا؟

- إنني أرغبك في كل مكان.

تقول وقد شعرت بمقدمة قدمي التي استقرت بين فخذيه مداعبة:

- كف عما تفعله أيها المجنون.. لا تلفت إلينا الأنظار.

- إذن فهيا بنا.

توافقتني إلا أنها تطلب مني مرافقتها حتى دار الكتاب الفرنسي الكائن في عمارة الايموبيليا لشراء كتاب، أوافقها على مضض، نخرج وقد تذرنا ببعضنا، يدها التي تطوق خصري تكاد أن تعترضني بينما ذراعي تطوق كتفيها المنسابين بهدوء، أتأمل شارع سليمان باشا بواجهات مبانيه العتيقة وقد شوهدت تماماً فلم يعد أحد ما يلمح ذلك الجمال القديم، يتلقفنا الهواء البارد إلا أنه يذوب متكسراً على وجهينا المصطخبين بحمرة الخمر القانية، تحاول سلوك شارع عدلي اختصاراً للطريق إلا أنني ألحّ عليها اتخاذ شارع سليمان باشا وجهة لنا، ترضخ لرغبتني الملحة مندهشة. تقول:

- لم تحاول إطالة الطريق؟

يا لتلك المرأة، أما تدري أنني راغب في استعادة ذكرياتي الجميلة التي رأيتها اليوم؟ كدت أخبرها بما يدور في رأسي إلا أن خشيتي من فتح باب الحوار في ذات الموضوع مرة أخرى قد يعكر صفونا جعلني أحجم عما انتويته، ها هو ميدان طلعت حرب العتيق والذي يحلو لي دائماً تسميته بميدان مدبولي، هذا الرجل بالتأكيد هو رمز المكان الخالد، تتجه عيناى نحو مكتبته التي أضاءت أنوارها الفلورنسية البيضاء، تبدو وكأنها قطعة من الجنة، تجول عيناى في المكان حيث جروبي الكائن في مكانه منذ القدم وقد أكسبته الأيام شيئاً من الحزن العميق، ألمح البعلي دالفاً من باب دار الشروق، أنبه لنا إلا أنني ما كدت أناديه إلا وقالت لي:

- دعك منه.

- لم؟

برغبة داعية:

- ألم تكن في شوق إلى؟

- وما زلت.

- إذن فلتدعه يذهب إلى حال سبيله.

ننحرف إلى شارع قصر النيل، يا لهذا الطريق الآخذ في التناول وكأنه لا ينتهي، تلوح لي عمارة الايموبيليا على ناصيتي شارع شريف وقصر النيل، أتأملها فأذكر جيداً أن هذه العمارة لم يكن لها وجود، أذكر أيضاً أنني رأيت مكانها اليوم إحدى تلك الفيلات الجميلة بحديقتهما الواسعة ذات الأشجار

الوارفة، ألم يخبرني الرجل الكهل بأنها المفوضية الفرنسية القديمة؟ فكيف أكون واهما إذن؟ لينته يأتي الآن كي يؤكد لي وللينا وللعالم أجمع أنني لم أكن أهذي، أتأمل المكتبة بواجهاتها الزجاجية اللامعة وقد زادت الأضواء الصادرة من لمبات النيون ألقاً، كانت غارقة تماماً في صمتها الأبدي، نقرب منها فأتساءل:

- عم تبحثين؟

- إنها رواية لجان بول سارتر.

- أليست مترجمة؟

- بلى، ولكنني أرغب قراءتها في لغتها الأصلية؛ الترجمة تشوه النص إلى حد ما.

تدفع الباب الزجاجي بهدوء لينغلق خلفنا، كان المكان هادئاً تماماً لا تكاد تسمع فيه إلا همس بعض الزائرين الذين يحرصون على عدم تشويه الهدوء بأصواتهم، أقف متأملاً الأرفف الكثيرة حولي وقد رتبت عليها الكتب بشكل أنيق، بالتأكيد أن لمدام إيفيت فرازلي الكثير من الذوق والاهتمام بكتبها وإلا ما جعلتها في مثل هذه الصورة المريحة، أتأمل العديد من الكتب المختلفة محاولاً قراءة عناوينها الفرنسية بلغتي الضعيفة، تلك اللغة كثيراً ما تربكني على الرغم من حبي العظيم للكنتها الجميلة، أحاول تهجي الكتب المواجهة لي les forets de la unit. أبحث عن اسم المؤلف لأجده بصعوبة. Jean Louis Curtis يا لتلك اللغة الصعبة، أرى

لينا وقد انتحت أحد الأركان بينما نتحدث بهمس لا يكاد يصل إلى مسامعي مع مدام فرازلي التي يبدو على وجهها آثار الزمن الطويل الذي عاشته، كانت مدام فرازلي تومئ لها لتتجه إلى أحد الرفوف متأملة برهة بينما يدها المعلقة في الهواء تمتد لإخراج أحد الكتب، يبدو أن المرأة عليمّة بأسرار مكانها الخاص، تعطي الكتاب للينا التي يبدو على وجهها فرح طفولي عجيب حينما تتناوله، تقترب مني وقد ملأتها البهجة، أحاول تهجو اسم الكتاب فنقول لي لينا بفرنسية رصينة:

- L'age de raison .

أنظر إليها متغابياً لتتطلق ضحكاتها التي تحاول كتمانها بيدها التي ترتفع لتغلق فمها خشية تشويه الهدوء المخيم على المكان. تقول:

- Pardon لم أقصد، نسيت أنك لا تجيد الفرنسية.

كنت أستاذ كثيراً من طريقتها في الحديث التي تحاول فيها مزج الفرنسية بالعربية، كانت تشوه الجمال الأسر للغة بتلك التداخلات الشاذة إلا أنني حاولت مجاراتها على سبيل المزاح فأقول لها بإنجليزيتي التي أفهمها:

- Don't worry ولكني لم أفهم منك شيئاً.

تقول جادة بينما نخرج من المكان:

- إنها رواية سن الرشد لجان بول سارتر.

- أذكر أن هذه الرواية عندي في نسختها العربية إلا أنني لم يوانتي الوقت لقراءتها.

- حاول أن تفعل؛ فهي جديرة بالاهتمام.

نخرج لعرض الشارع في كمنه الليلي، كم أحب هذا المكان وقد خلا من رواده، وقتها أشعر وكأن القاهرة ملك لي وحدي، أنا فقط ملك هذا المكان المهان وقد توجت عليه، وقتها أشعر برغبة أسطورية وكأنني قد خرجت من حكايات ألف ليلة وليلة بتغيير المكان كي أعيد له عمقه الذي كان، يخيل لي أنني أستطيع الإشارة بيدي هكذا فيتم محو كل هذه التغيرات الطارئة تاركة مكانها عبقها القديم الأسر:

- كم أحب القاهرة ليلاً.

تطلق مني الكلمات وكأنني أناجي نفسي فأشعر بيدي لينا تزيداني ضغطاً إلى جسدها، تقول حالمة بينما خطواتها تحنو على الأرض:

- كم أحبك أنت في جميع أوقاتك.

كان شعرها الأسود الداكن ينسدل على كتفيها متهادياً وقد اكتسب ألماً، أتسمه لتملئ رثتي برائحته الخاصة الدافئة التي تشعرني بدفء جسدها. تقول بدعة مازحة:

- أمصاب بالفتيشية أنت؟

يا لهذه المرأة، كنت أعرف أنها يوما ما سوف تتهمني بهذا الاتهام المجنون حينما اقتنيت سوتيانها الضيق. أقول هادئاً:

- أعشق كل جزء فيك، كل ما له صلة بك أرغبه بجنون.

- وتدعي أنك لا تحبني؟

- أنا لا أكرهك على الإطلاق وسلوكي معك خير دليل على قولي، لعلك الوحيدة من بين الجميع التي تعرف عني دقائق حياتي.

- لم أقل أنك تكرهني؛ فلو فعلت ذلك لقتلتك بلا تردد...

- يا لك من رومانسية.

كنا قد اقتربنا من الأمريكيين الكائن عند ناصية 26 يوليو، نحث الخطى باتجاه منزلي العتيق ذي الدرجات المرتفعة التي تكاد أن تشعرك بأن أنفاسك قد هربت منك لتتركك على شفا الموت، أشعر بدبيب الرغبة إلى لينا يهزني، أأشتاق إليها وهي بين يدي؟ ما أن دلفنا من باب البيت الكائن بجوار معرض السيارات الذي شوه واجهة البيت السفلية إلا وواتنتي رغبة مجنونة في حمل لينا بين ذراعي خشية شعورها بالإجهاد من صعود الطوابق الأربعة، أرفعها عن الأرض لتتفلت منها ضحكة مندهشة من فعلي:

- يا لك من مجنون.. انك...

تتطبق شفتاي لاثمة شفتيها في رغبة مجنونة فتصمت متأوهة وكأنها تتذوق شيئاً ذا مذاق جميل، صوت أنينها الملتذ يزيديني رغبة بينما أسنانها تضغط شفتي السفلى ضغطاً هيناً بطريقتها التي أعشقها فيها، تولج لسانها داخل فمي فأمتصه ناهلاً منه على مهل، أشعرها تكز بقوة على شفتي حتى كادت أن تدميها، طعم ما مالح أستشعره دافئاً في فمي يؤكد لي أنها قد

أدمت شفتي التي انثال منها الدم الممتزج بلعابها بين شفتيها،
تزداد الرغبة الصاخبة داخلي حينما يزداد ضغط أسنانها على
شفتي فأنهال على وجهها لثماً، لم أدر بالدرجات التي صعدتها
إلا حينما ألفتنا أمام باب شقتي وقد صار جسدها لينا ينساب
كالماء بين أصابعي.

الهزيع الأخير

في الهزيع الأخير من الليل كنت أنا ولينا نكاد أن نقذف حدود المكان المحيط بنا بشواظ هائلة من الحمم البركانية السائلة التي تحول إليها جسدانا المنصهران، عري جسدها له تأثير خاص على حواسي الملتهبة؛ فأشعرنني وكأنني أغوص في دوامات هائلة عميقة متسارعة من اللذة الشبقة التي تأخذني إلى أعماق لامتناهية، كانت شفتي السفلى المضضعة بفعل أسنانها الشبقة قد فقدت حساسيتها تماماً حتى لكان دبيباً واهناً من النمل يسري فيها ثم لا أشعر بها بعد ذلك، ما لهذه الشهوانية الدموية تتملك على هذه الخلاسية لحظاتها الليلية؟ أشعرها تضاجعني بكل ما في جسدها من رغبة وكل ما فيها من قوة وكأنها على وشك فقدي، أسمع صوت تأوهات المتعالية التي تتطلق في جميع أرجاء المكان، فيها لذة قصوى راغبة في المزيد، كانت قد طرحتي أرضاً حينما شعرت بجسدها يكاد أن ينفجر من فرط مداعباتي له، أشعرها تخلع ملابسها على عجل لتستلقي عليّ معتلية إياي عارية تماماً بجسدها النافر في كل زاوية من أركان المكان، تجول يدي حرة طليقة في جميع أرجاء جسدها. يا لثرائه الشامخ. كان لهذا الجسد اعتزاز غريب بذاته لا تكاد تدري له سراً، تستقر يدي على نهديها النافرين، أحاول إحاطتهما بكفي إلا أنهما ينفلتان منهما لشموخهما اللين، أدور بأطراف أصابعي على دورانهما لأداعب حلمتيها ذاتا الهالة

الداكنة حولهما، أسمعها تنن ملتذة فأنكب على حلمتيها ماصاً
إياهما، كنت أكرز عليهما بحنو إلا أن الرغبة العارمة السارية في
جسدي جعلتني أكاد أن أقضمهما، صوت أناتها المتعالية فيها
الكثير من الألم الممتزج باللذة، تقول صارخة:

- كفاك...

كانت المرأة تضاجعني بطريقتها الخاصة جداً ذات الدربة
الجيدة، لها طريقة آسرة تجعلك أسيراً لها وقد وقعت في دوامات
من الخدر البعيد، أشعرها صاعدة هابطة تجعلني أنتفض لذة.
لديها قدرة عجيبة في التحكم بعضلاتها حتى أنك تشعرها
تقبضها بحركة تموجية رائعة حتى تنقبض تماماً، كنت أستمتع
كثيراً بتلك الطريقة الخاصة بلينا وحدها، من أين لها بهذه الدربة
الخاصة؟ لها أسلوبها الخاص في كل شيء، تراءى لي في وقت
ما أن جمالها وثقافتها فقط لهما أسلوب خاص في الحياة إلا أن
أسلوب ممارستها الحب أيضاً أكثر جمالاً، كان الخدر اللذيذ قد
سيطر على جسدي بينما لينا تفعل بي ما يحلو لها وقد تهت في
أفكار خاصة عجيبة، عيناها الواسعتان ذاتا التضاد اللوني
الجميل كانتا ناعستين هائمتين في عالمهما الخاص من اللذة،
شفتاهما متشنجتان بطريقتهما الخاصة لتشكلا العديد من الحركات
المختلفة، حركة مفاجئة بدرت منها جعلتني أنفلت منزلقاً من
داخلها، تتحرك كفها المكتنزة ذات الأصابع المسحوبة بهدوء
ورغبة مستميتة لتقبض عليّ، أتأمل كفها الرائعة، تبذلني بينما
يعتمل داخلي تساؤل غريب لست أدري مصدره. يا للجنون، ما
لهذا السؤال الذي يضرب أركان مجتمتي البائسة وكأنه إحدى
الكرات المطاطية وقد قذفت بقوة لتأخذ في الارتداد المتبادل؟

أحاول إبعاد السؤال عن خاطري إلا أنه كان يصر بضراوة،
ينفلت فجأة من فمي كأنه يار مباغت لجبل من الثلج:

- كيف افتضت عذريتك؟

كنا في أوجنا الشامخ فهبطنا فجأة إلى أعماق سحيفة،
تنزوي الرغبة المعتملة فجأة فتختفي، يتوقف بنا الزمن آنياً حتى
لأنا انتقلنا إلى فراغ تام لا حدث فيه على الإطلاق، فقط
اللاشيء الهائل الذي يحيطنا، كانت لنا قد تجمدت فجأة على اثر
سؤالي المباغت، تهبط من فوق، أرى في حركتها هدوءاً عجيباً
وكأنه ذلك الذي يسبق العاصفة، تبحث عن ملابسها بتؤدة
لتخرج علبة سجائر متناولة واحدة، تشعلها مفكرة لتستلقي
مسترخية على الأريكة، أتأملها في جلستها المتكئة على مرفقها
وقد ثنت إحدى ساقيها نصف ثنية بينما تدلت الأخرى أسفل
الأريكة، الانفراج الناشئ من وضع ساقيها جعلني أكاد أدفن
نفسي فيه. نقول مفكرة:

- ما أهمية معرفتك لذلك؟

أطرح على نفسي السؤال مندهشاً، بالفعل ما أهمية ذلك
بالنسبة لي؟ هل سيحدث تغييراً ما؟ وما الذي جاء بهذا التفكير
للعين إلى رأسي؟ أهى فعلاً طريقتهما ذات الدربة الخاصة في
الممارسة هي التي دفعتني إلى مثل هذا التساؤل أم أنها رغبتني
الدائمة في معرفة البدايات؟ أرد متحيراً:

- بالتأكيد أنت تعرفين جيداً أنني لا أفكر كهؤلاء المحيطين بنا،
ولكني في ذات الوقت لست أدري سبباً لمثل هذا التساؤل
الذي ورد على ذهني فجأة فسألته.

كانت قد اطمأنت إلى حد ما، فقالت:

- لم لا تأت بكأس من النبيذ؟

أنهض هادئاً في عريي الآخذ في الكمون، أصب لها كأساً من النبيذ متولاً زجاجة بيرة لي، أناولها كأسها فتجذبني من يدي مطوقة إياي على الأريكة، تقبلني بنهم غريب لنقول بعد ابتعاد شفقتيها الأسرتين:

- رفضي لما يحيطني من هراءات تعشش في أدمغة مجتمعا المتهرئ هي التي جعلتني أفض بكارتي.

ينطلق سهم الدهشة في عقلي فيصيبه بالشلل التام عن التفكير، أحاول النطق إلا أن التصاق لساني بمؤخرة حلقي وكأنه قد تم تثبيته هكذا منذ الأزل بمادة غرائية قوية جعلني أصمت، أقول بعد فترة ليست بالقصيرة وقد توارد إلى ذهني العديد من التكهانات:

- كيف كان ذلك؟

ترتسم على محياها بسمه ساخرة لتتطلق ضحكتها المجلجلة ذات الانسحاب الأخاذ قائلة:

- صدقني، إن مقتي لهذا المجتمع يفوق مقتك إياه إلا أنني أحاول بشتى الطرق التكيف معه؛ ليس حفاظاً على مصالح ما فيه ولكن لأن العزلة حقيرة حتى ولو كانت بإرادتي.

يسري صوتها في هدوء الليل منساباً، كانت وكأنها تتاجي ذاتها بينما الكلمات تتتالي من فمها مندفعة بهدوء:

- النظرة العميقة لما حولي جعلتني أرى في هذا المجتمع القبيح صورته الشائنة التي لا تتعامل مع المرأة منا إلا من خلال

غشاء بكارتها، هذه النظرة القاسية تؤلمني كثيراً.. أيتّم التعامل معنا على أننا شيء ما إذا تم استعماله من قبل الآخر فهو مرفوض لا قيمة له؟

أراها ترفع كأسها لتجرعه دفعة واحدة ثم تتناول سيجارتها التي أوشكت على الانتهاء لتمتص دخانها بنهم، تقول بينما يخرج الدخان الكثيف من فمها ومنخريها ليغطي جمال قسماتها:

- بالله عليك قل لي.. ما معنى العذرية عند هؤلاء الحمقى؟
أليس هناك الكثيرات اللاتي يحافظن على أغشيتهن الملعونة تلك وعلى الرغم من ذلك فإنهن لا يعدون أكثر من مجرد داعرات يفعلن ما يحلو لهن دون دراية أحد؟
أقول هادئاً:

- في المقابل هناك من فقدن أغشيتهن في إحدى لحظات الاندفاع البريء وعلى الرغم من ذلك ما زلن عذراوات.
مندفعة:

- هذا هو ما أوصلني إليه تفكيري، فأنا أرى أن العذرية هنا روحية وليست جسدية.
أقول ساخراً:

- عله تفكير أحمق من هؤلاء الرجال الذين يوهمون أنفسهم بأشياء لا طائل من ورائها.

- بالتأكيد هم موهومون والدليل على ذلك أن هناك الكثيرات اللاتي فقدن عذريتهن المادية وبالرغم من ذلك خدعن أزواجهن حينما قمن بعملية ترقيع مشينة ليلة زفافهن لينتشي الزوج وينام قرير البال.

أقول مبتئساً:

- يا لتلك النظرة القاسية.

- أجل إنها نظرة مهينة وليست قاسية فقط؛ ولأنها هكذا فلقد سيطرت عليّ رغبة عارمة في تحدي مثل هذا المجتمع الأحمق؛ ولأنني أرى أن عذريتي روحية في المقام الأول وهي ملكي أنا وليست ملك الآخرين.

لم أدر ماذا أقول لها، أضمتها إلى صدري شاعراً بعريها، جسدها الباذخ في عطائه جعلني أضمه بحنو، أشعر بأنفاسها الحارة تصطدم بصدري بينما أصابعها تداعب الشعيرات القليلة النابتة فيه، تجذب إحداها بغتة فأنفض لتتطلق ضحكتها. تقول بعد الانسحاب البطيء لضحكتها الآسرة:

- أتدري أنك الأول في حياتي، ذلك الجسد لم يمسه غيرك؟

أسمعها تتاجيني بلهجتها العاشقة بينما التساؤلات الملحة تتري على ذهني، ما لهذه المرأة تحاول حصاري بحبها؟ ولكن ما المانع الذي يمنعني من ذلك؟ على الرغم من عدم وجود مانع ما إلا أن مشاعري العاطفية التي يبدو أنها قد تجمدت منذ زمن بعيد تأبى الانسياق لها. ولكن ماذا لو جاريته في عشقها؟ لا.. لا يمكن أن أكون مخادعاً خاصة مع ليلى، تلك التي أشعرها جزءاً من كياني. أقول متردداً بينما لساني يتلجلج:

- ليلى.. أنا أرفض أن أكون مخادعاً لك.

مندهشة:

- كيف تخدعني؟

- لست أجرؤ.. ولذلك أرغب في وضع أساس لعلاقتنا الآن.

فرحة:

- أي أساس هذا؟

- أرجوك حاولي أن تفهميني.. أنت تدرين جيداً أنني لا أكرهك.

- بالتأكيد وإلا كنت قد قتلتك.

- تعلمين أيضاً أنني لا أحبك بذلك المعنى العاطفي.

تقول بينما لم يصلها فحوى كلامي بعد:

- لا عليك.. فلتحبني بأي شكل يحلو لك...

ثائراً:

- لينا، حاولي فهمي ولا تجعللي الأمر صعباً.

- أي أمر هذا؟ صدقني أنا لا أفهمك.

متتهداً:

- أعرف ذلك، فأنا نفسي لا أفهم ماذا أريد، ولكن ملخص الأمر

أنني قد ارتبطت بك ارتباطاً قوياً لست أدري كنهه حتى أنني

لا أتخيل فراقك لحظة واحدة، ربما لثقافتك التي لم أنتظرها

فيك، ربما لذلك السحر الذي يحيط جسديك، ربما لأنك

الوحيدة دون الآخرين التي تشعر بي في كل أوقاتي قادرة في

ذلك على فهمي، ربما لأمر كثيرة لا أستطيع تعدادها فيك

ولكن ليس معني هذا الارتباط القوي بك أنني أحبك بذلك

المعنى العاطفي بمعنى... ال emotion.

تتسع حذقتها وكأنهما قد جمدتا ففقدتا الحياة، تتجمع في

مقلتيها دموع غزيرة تأبى على الانسكاب لتقول مختنقة من أثر

غصة تمنعها من الحديث:

- ما معني هذا الارتباط إذن؟

متحيراً:

- صدقيني لست أدري.. فأنا لا أفعل شيئاً دون استشارتك حتى أنني لا أكتب شيئاً إلا وأتصل بك في منزلك أو أهرع إليك طالباً رأيك، وهذا ما لا أفعله مع مخلوق على الإطلاق.

صارخة وقد انزلت دموعها على وجنتيها:

- لا يعينني ذلك في شيء، إنها أنانية عجيبة سيطرت عليك حتى أنك صرت تبغي الأخذ دون العطاء، صارت ذاتك فوق ذوات الآخرين.

- لست كذلك صدقيني، لينا أنا في حاجة دائمة إليك.

- لا تتطق اسمي مرة أخرى أيها الغبي.. أي حاجة تلك التي تدفعك إلي؟

يا لئلك المرأة التي تتهمني بما لا أقصده، يرتفع صوتها الباكي المتشنج ذو الرجع العميق، أحاول ضمها إلى صدري مهدئاً إياها إلا أنها تدفعني بقوة لأقع أرضاً، أراها تنهض غاضبة لترتدي ملابسها بعصبية حتى أنها كادت أن تمزق بلوزتها الشديدة الضيق حينما استحكمت على الدخول في تضاريسها، تنظر لي متألّمة بينما دموعها تتسال غزيرة، أنهض محاولاً إثنائها عما تنتويه، تقول محذرة بينما صوتها يصلني متقطعاً متشنجاً:

- لا تقترب مني.. دعني وشأني.

تقولها لتصفق الباب في وجهي بقوة حتى وكأنه قد خلخل الهواء المحيط بي فشعرت بالبنابة العتيقة تهتز متزلزلة، ألقي بجسدي متهاوياً على الأريكة التي ما زالت دافئة بدفء جسدها،

يا لها من امرأة، أتغضب حينما أصرحها بحقيقة مشاعري؟ وماذا في ذلك؟ أعتقد أن النساء جميعاً يرغبن في خداعهن، لا، إلا لينا؛ فهي ليست ككل النساء، أنهض وقد شعرت بساقي متخاذلتين، أتناول زجاجة بيرة مثلجة لأجرعها على دفعتين، أتأمل الشقة العتيقة حولي التي ما زالت عابقة بشذى لينا الخاص، تقع عيناى على المنضدة القريبة فأرى كتابها الذي كانت قد اشترته منذ بضع ساعات من مدام ايفيت فرازلي، غضبها الشديد جعلها تنساه، أحاول تهجو اسمها بصعوبة. l'age de raison. أتذكر طريقته الرصينة في نطق اسمه فابتسم حزناً، لماذا لا تحاول أن تفهمني؟ أشعر بوحشة غريبة تشملني حتى أنها تشعرني بالفراغ القاتل، لها حضور عجيب يقتل الوحشة حتى لكأنى قد اكتسبت الكون بما فيه، كم أنا في حاجة إليها الآن، ولكن كيف سأصالحها وهي بهذا القدر من الرفض الغاضب؟ إنها تذكرني بتلك المرة التي اصطدنا فيها لذات السبب ولم تعد إلى صفوها القديم إلا بعد محاولات مستميتة تدخل فيها البعلي للإصلاح بيننا، أجرع المزيد فأذهب في غيبوبتي الخاصة التي أرى فيها لينا تقف بعريها الأسر وقد ارتسمت على قسماط وجهها بسمة أخاذة كادت أن تسلبني لبي، أرى ذراعيها الممدودتين ببذخهما غير المفرط مفتوحتين لي مهياًتين لاستقبالي في أحضانها الدافئة، أشعر بقدمي ثقيلتين رازحتين على الأرض لا تتحركان قيد أنملة، أسمعها تناديني بصوتها العذب الرقراق، كان له رجع عميق كصوت تأوهاتنا المنتشية، أحاول الحركة بلا جدوى، بعد محاولات مستميتة

تتحرك قدمي ببطء شديد، أقطع المسافة الفاصلة بيننا بعد عدة قرون طويلة، أتهياً لالقاء جسدي في أحضانها الدافئة إلا أنني ما كدت أفعل إلا ووجدت المسافة الشاسعة التي كانت تفصل بيننا تعود مرة أخرى للاتساع، أحاول جاهداً مرة أخرى الوصول إلى ذراعيها الداعيتين إلا أنني كلما اقتربت منها ابتعدت مرة أخرى، وكأنني أحد هؤلاء الأغارقة الذين كتب عليهم الآلهة استعادة المتاهة إلى اللانهاية، أقرب منها أخيراً بعد الكثير من المحاولات الفاشلة، لم تكد كفها المكتنزة التي أعشقها أن تتلامس مع كفي إلا ورأيته تتماهى متشكلة لتذوب في الفراغ المحيط، أحاول مناداتها بكل ما أوتيت من قوة، أبحث عنها بلا جدوى، أصرخ مستغيثاً بها لأفريق من غيبوبي الطويلة- التي غبتها عما حولي- على صوتي الضعيف الواهن ينادي لي، كنت ما زلت راقداً على أريكتنا الخاصة منذ تركتني، أنظر في ساعتني فإذا هي الثامنة صباحاً. كنت ما زلت غارقاً في عريي الخاص الذي ذكرني بما حدث بيننا، ألمم أشلائي الحزينة مرتدياً ملابسني على عجل، أتناول الهاتف متلهفاً لتدور أصابعني التي تضغط أزراره في متتالية عديدة لا تنتهي، ينطلق الصوت الرتيب ذو الغلظة الخاصة في أذني، ذلك الصوت المعدني الرتيب هو الصلة الوحيدة التي تصلني بها الآن، يتواصل الرنين بلا جدوى، ينقطع الرنين المعدني فجأة فأشعرني أهوى بقوة في حفرة سحيقة لتدفنني داخلها، أعيد المحاولة متشبثاً بالأمل الذي بدأ ينزوي داخلي، يعود الرنين الغليظ لينقطع فجأة على صوت نسائي غريب، أعرف جيداً أنها تسكن وحيدة وليس هناك من

يشاركها وحدتها، يلتبس عليّ الأمر فأغلق السماعَةَ منزِعاً،
أعيد الكرة مرة أخرى ليرد عليّ ذات الصوت الذي يبدو وكأنه
قادم من سباته الليلي العميق. أقول متردداً:

- أستطيع محادثة لينا؟

ببرود حيادي:

- لينا من؟

أندهِش للسؤال البارد فأعيد عليها تلاوة الرقم الذي طلبته
متأكداً خشية أن أكون قد أخطأت الرقم. ترد عليّ قائلة:

- أجل، هذا هو الرقم الذي طلبته تماماً.

حائراً:

- أين لينا إذن؟

- أية لينا؟

- لكن هذا هو رقمها الذي أحفظه عن ظهر قلب والذي طالما
هانفتها عليه.

- لا توجد هنا من تدعي لينا، وأرجو ألا تعاود الاتصال مرة
أخرى.

تقولها المرأة الباردة لتغلق السماعَةَ بغتة، ينطلق في أذني
ذلك الصوت الآلي الرتيب الذي يدل على انتهاء المحادثة، أبحث
عن مفكرتي التي أحتفظ فيها بأرقام الهواتف، أبحث عن لينا
عَلَنِي أخطأت في طلب الرقم، بالضبط هو الذي طلبته الآن لا
خلاف فيه، إذن فمن تلك الثلجية التي ردت عليّ؟ لا بد أن هناك
خطأ ما، أضع المفكرة أمامي لأعيد طلبها مرة أخرى، يرد عليّ
ذات الصوت فلا أقوى على الرد. أقول بعد فترة:

- سيدتي لا تؤاخذي، ولكن أهذه مزحة سخيفة؟

أعيد عليها تلاوة الرقم فتؤكد لي أنه لا يوجد خطأ في رقم الهاتف، ولكن ما من واحدة بهذا الاسم هنا، أضع السماعة وقد شعرت بأنفاسي تختنق، كيف يمكن أن يكون هذا؟ أتذكر هاتف عملها فأحاول مهاتفتها عليه إلا أن المفاجأة القصوى التي كانت تنتظرني سقطت على رأسي كالصاعقة لأشعر بالكون من حولي يتزلزل ناثراً أشلاءه عليّ، واجهني الرد القاسي الغليظ ذاته في عملها، حاولت التأكد إلا أن مدير مركز الترجمة أكد لي أنه ليس هناك مترجمة لديهم تحمل ذلك الاسم على الإطلاق، بل وأكد لي أنه لم يقابل مثل هذا الاسم من قبل، كيف يحدث ذلك؟ لقد هاتفتها مراراً عديدة على هذين الرقمين، أذكر جيداً أنها كانت ترد عليّ في كل مرة أهاتفها فيها، من أين نبع ذلك الخلط إذن؟ أوتكون لنا هي التي تفعل ذلك رغبة في الانتقام مني؟ لا.. هي لا يمكن أن تفعل بي هذا، أغوص في تساؤلاتي التي تزيدني حيرة على حيرة. أتناول الكثير من النبيذ مؤكداً لنفسني أنني لست واهماً، تقع عيناى على كتابها الذي اشتريته بالأمس فقط ونسيته حين خروجها، أحتضن الكتاب محدثاً إياه، له دفء غريب كدفء جسد لنا تماماً، لا بد أن أجدها، أجل، فهذه الدائرة الضيقة التي تكاد أن تغلق عليّ قاربت على إصابتي بالجنون، أتذكر أن البعلي هو الوحيد القادر على تأكيد حيرتي تلك، أجل، فلقد عرفتها من خلاله وهو الوحيد الذي كان يتدخل لاصلاح ذات بيننا، أين أجده الآن؟ أجل، سأهاتفه على تليفونه المحمول، أضغط أرقام هاتفه متهلفاً، أعزم على عدم مفاتحته

في الأمر من خلال الهاتف، لا بد أن أرى تعبير وجهه حين حديثي معه، أليس من الممكن أن يتواطأ الجميع عليّ من أجل دفعي للجنون؟ ينقطع الصوت المعدني الغليظ على صوته الهادئ الذي أحفظه جيداً، أقول محاولاً تصنع الهدوء:

- لا بد أن أراك الآن.

منزعجاً:

- لماذا؟ أهنالك ما يسوؤك؟

- لا.. ولكني أرغب في رؤيتك لأمر هام.

- لا بأس.. أراك بعد نصف الساعة على أفتر ايت.

- اتفقنا.

أغلق الهاتف وقد تأكدت تماماً أنه لن يخادعني، سيدلني على مكان لينا، لا شك في هذا، أتجه للحمام كي أصدم جسدي الملهب بالماء البارد، أشعر بالماء ساخناً رغم برودته الشديدة. أويكون قد اكتسب حرارة جسدي اللاهب؟ شئ من البهجة بدأ ينتابني لإحساسي باقترابي من العثور على لينا، أرتدي ملابس متعجلاً لأحذو الخطو في اتجاه أفتر ايت، أتأمل اكسلسيور برواده القلائل الذين بدأوا يتوافدون على المكان، يخيل لي رؤيتها جالسة على طاولتها المنزوية في أحد الأركان، يزداد وجيب قلبي إلا أنها لم تكن هناك، أحث الخطو خشية أن يستأخرني البعلي، ما أن أراه جالساً في ذلك الممر الذي على يمين الداخل من شارع الأنكخانة الذي كان مكان لقائي الأول بلينا إلا وتشتد ضربات قلبي الواجفة حتى لكأنها تحدث زلزالاً هائلاً في قفصي الصدري الواهي، أحبيه متلهفا فيقول بصوته

العميق الهادئ:

- ماذا هناك؟ لقد أزعجتني.

أتأمل قسمات وجهه جيداً لأتأكد من ردود أفعاله التي لا بد ستظهر واضحة جلية عليه، أسأله مباشرة دون أية مقدمات:

- أين لينا الآن؟

ترتسم على وجهه علامات الدهشة الصادقة الممتزجة بالحيرة ليقول:

- لينا من؟

أرد محاولاً التماسك:

- بعلي، إنك الصديق الوحيد لي والذي أكن له قدراً غير هين من الاحترام، أرجوك لا تتلاعب بي.
يرد مندهشاً:

- صدقني لا أعرف عما تتحدث.. كن أكثر وضوحاً وتأكد أنه لا يوجد ما يبرر خداعي لك.
متمسكاً بالصبر:

- أتذكر يوم هاتفتك في تلك الليلة الممطرة وطلبت لقاءك فأشرت عليّ بأفتر ايت بدلاً من البستان؟
- أجل.. أذكر هذا، وأذكر أيضاً أننا استكملنا سهرتنا في بار "كاب دور" بعد أن تناقشنا في مقالك عن فيلم "أرض الخوف" وبعد انتقادات الحاد للمجتمع الذي يقبل "اللمبي" وأمثاله.
أقول مبتهجاً:

- في تلك الليلة ألم تعرفني على لينا التي تعمل في مجال الترجمة وتكتب القصص القصيرة؟ وكان هناك شاب

يشاركنا الجلسة وسرعان ما انصرف ربما لجهله المطبق؟
- أما عن ذلك الشاب فأنا أذكره جيداً، ولكن لدينا تلك التي
تحدث عنها فليست أدري عنها أي شيء على الإطلاق، بل أنا
لم أقابل في حياتي من تدعى بهذا الاسم هذا فضلاً عن عدم
اختلاطي بفتاة تعمل في مجال الترجمة من قبل.

رغبة عارمة من الغضب تدفعني لتحطيم رأسه، أحاول
التماسك أكثر نافياً من رأسي شكل رأسه المسحوق وقد خرج
منه مادة هلامية بيضاء مختلطة بالدم القاني، أروي له ما كان
بيننا في تلك الليلة والهاتف الذي جاءه ونحن في طريقنا للبار
وتلك الحياة الشبيهة بالفردوس الحقيقي التي عشتها مع لينا،
أؤكد له ذلك الخلاف الذي أصلحه بتدخله من قبل ثم ذلك
الخلاف الآخر الذي كان بالأمس، كنت أرى ملامحه التي بدت
لي الآن كريهة مشوهة تتشكل أمامي بالدهشة، كنت كلما أسهبت
في الحديث كلما رغبت شفتاه بالنطق ليتهمني بالجنون، ما أن
انتهيت من روايتي إلا وأطبق علينا صمت ثقيل كاد أن يخنقني.
أقول حانقاً:

- مالك تصمت هكذا؟
- ماذا تريد مني أن أفعل؟ أقوم راقصاً كالمجنون لأن عزلتك
اللعينة جعلتك تهذي؟
- أي هذيان هذا؟ يبدو أنك أنت الذي يهذي أو أنك تتآمر عليّ
بالتعاون مع الآخرين لدفعي للجنون.
- لماذا نفعل ذلك؟ أنت تعرف مقدار حبي لك.

كان كلامه عقلانياً إلى حد بعيد، ليس هناك ما يبرر تلك
المؤامرة التي أتخيلها، ولكن كيف يكون كل هذا وهما؟ إنها حياة

حقيقية عشتها بكل ما فيها، بالتأكيد هي حياة حقيقية وإلا من أين يكون قد أتى ذلك السويتان الضيق الكامن في خزانة ملابسى؟ دك من هذا، كتاب جان بول سارتر الذي ما زال في مكانه حتى الآن منذ وضعته لينا بيدها على المنضدة، من الذي جاء به إذا لم تكن هي؟ أتذكر رؤيتي له بالأمس عند دار الشروق عندما كنا في طريقنا أنا ولينا إلى عمارة الايموبيليا. أقول مندفعاً:

- ألم تكن البارحة في مكتبة دار الشروق؟

- بالتأكيد كنت هناك.

- لقد رأيته أنا ولينا وما كدت أناديك إلا وطلبت مني عدم فعل ذلك.

يقول متشككاً:

- أشربت اليوم كثيراً؟

مغتاظاً:

- أنت حقير.

- دك من كوني حقيراً أم لا فهذا الرأي يخصك أنت وحدك، ولكن ما أود أن أقوله لك بصدق هو ألا تحاول الانسياق خلف هذه الخيالات التي ستجعلك مجنوناً.. حاول الخروج من عزلتك؛ فلست المثقف الوحيد الذي يشعر بالعجز والإهانة والضيق من هذا المجتمع المتخلف.. كنا نشعر بذات الشعور إلا أننا لم نختر العزلة الغريبة التي اخترتها لأننا نعلم جيداً أنها موقف يبدأ بالجرأة لينتهي بالمرض النفسي.. فلتحاول الزواج، معرفة الفتيات، أي شئ، المهم ألا تظل هكذا.

كان البعلي يتحدث بينما عقلي يشرد في عوالم أخرى بعيدة عنه تماماً، لم أدر إلا بساقيّ المتقلّتين تحمّلاني بعيداً عنه متلقّفاً الهواء البارد الذي بدأ يهب ليصفع وجهي، ربما اندهش لفعلي هذا، لم أدر إلا أن أتوجه إلا أن ساقيّ المتعبّتين اتجهتا بلا إرادة إلى اكسلسيور، أدفع الباب بهدوء شارداً عما حولي، ابحت عن النادل الذي كان هنا بالأمس، ذلك الذي ظنني معتوهاً حينما تحدثت معه، أنتحي أحد الأركان لأشير نحوه، يأتيني مسرعاً وقد بدت على وجهه علامات التذكر، أطلب كأساً من النبيذ لأبادره بالسؤال:

- أتذكرني؟

- بالتأكيد سيدي، فأنت زبون دائم هنا.

- لقد كنت هنا بالأمس، أليس كذلك؟

مندهشاً:

- بالطبع سيدي.

- أتذكر تلك الفاتنة التي كانت معي؟

- من لا يذكرها سيدي؟ إنها تأتي معك دوماً.

ها هو النادل إذن يذكرها، علّه الدليل القوي على عدم هذياني، إذن فالآخرون متواطئون عليّ كما كنت أظن، تشملني رعدة قوية ممثلة بالبهجة الشديدة، ذلك الرجل الذي كان يتلمظ وكأنما قد ملأته الشهوة حينما حدثته عن لينا يذكرها جيداً، الأمر لم يكن حلماً إذن، أتناول كأسي مسرعاً لأخرج صوب بيتي، ألمح النادل أثناء خروجي متحدثاً مع زملائه وقد بدت على وجوههم جميعاً علامات السخرية التي تتهمني بالجنون، عيونهم

المتفحصة إياي تدل على أن الرجل كان يجاريني ظناً منه أنني معتوه، لا، لا بد أنه يهياً لي ذلك، فلقد أكد لي تواجد لنا معي هنا بالأمس، تلك النظرات الشهوانية التي بدت في عينيه خير دليل على صدق كلامه؛ فحضورها له مثل هذا الفعل الشهواني العميق، علّمهم كانوا حزاني عليّ نتيجة فقدي حبيبتي، أسرع نحو منزلي العتيق، ما أن أدخله إلا وأنتسم داخله عطر لنا الغامض الذي يعبق المكان، لها رائحة سرية غامضة تفوح من مسام جسدها في حالات فرحها وزهوها بينما تختفي تماماً في حالات حزنها. أتناول كتابها الذي اشترته بالأمس من مدام ايفيت فرازلي، أسرع هابطاً نحو عمارة الايموبيليا، سأؤكد للجميع ولنفسي أيضاً أنها ليست وهماً بل هي حقيقة راسخة رسوخ جبال الأرض جميعاً، ما أن اقتربت من عمارة الايموبيليا حتى شعرت بصاعقة تهبط على رأسي، كانت المكتبة مغلقة تماماً بأبواب حديدية صماء لها أشكال هندسية منتظمة، تبدو الكتب من خلف واجهاتها الزجاجية كما رأيتها تماماً بالأمس، ولكن لم هي مغلقة هكذا؟ أسأل أحد المحال المجاورة الذي يخبرني أن شركة الشمس المالكة للعمارة لم تكد تعلم بموت صاحبها ايفيت فرازلي وإغلاق المكتبة ثلاثة أيام حداً عليها إلا وحاصرت المكان بالسلاسل والجنائز لمنع الورثة والعاملين من الدخول. كنت أنظر للرجل بتشكك واضح، كيف تكون مدام ايفيت قد ماتت منذ شهرين كاملين على الرغم من أنني رأيتها هنا بالأمس فقط تقف مع لنا؟ ألم ألمح وقفعتها الهادئة حينما سألتها لنا عما تبغيه؟ لقد رأيت يديها الماهرتين وهما تمتدان لإخراج هذا

الكتاب، أترك الرجل لأسير على غير هدى، أتأمل الكتاب بعمق، أعرف جيداً أنني لا أجد الفرنسية فمن أين أتى هذا الكتاب إذن؟ بالتأكيد هو ليس وهماً؛ فكل من يراه سيؤكد أنه كتاب فرنسي، ولكن من الذي أتى به إذا لم يكن للينا وجود؟ أذكر سوتيانها الضيق في خزانة ملابسها، كانت قد تركته منذ قلت لها أنه يجرح جمال نهديها فأعرضت عن ارتداء مثل هذه الأشياء مرة أخرى، أذكر أيضاً أنها قد جرحت شفتي السفلى بالأمس وما زلت أشعر بالألم، ألم تععضها بأسنانها حتى أدمتها؟ ولكن أين هي الآن؟ وما الذي ينبغي عليّ تصديقه، شواهد تلك أم شواهد الآخرين؟ أحاول الهروب من أفكار المصطخبة مؤكداً لنفسي أنها لا بد سوف تأتي لي مرة أخرى في ذات الموعد الذي كان بيننا بالأمس في اكسلسيور، أهدئ لخطري مبتسماً حاثاً الخطو إلى اللاجهة.

25 مايو 2003

28 ديسمبر 2003

